٦١١

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة

ذكر مُلك خُوارزم شاه علاء الدّين كِرمان ومكران والسّند

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أيّ سنةٍ كانت، إنّما هي إمّا هذه السنة، أو قبلها بقليل، أو بعدها بقليل، لأنّ الذي أخبر بها كان من أجناد الموصل، وسافر إلى تلك البلاد وأقام بها عدّة سنين، وسار[1] مع الأمير أبي بكر الذي فتح كِرمان، ثمّ عاد فأخبرني بها على شكٍّ من وقتها، وقد حضرها فقال: خُوارزم شاه محمّد بن تكش كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه أبو بكر، ولَقَبُه تاج[2] الدّين.

وكان في ابتداء أمره جمّالاً يكري الجمال في الأسفار، ثمّ جاءته السعادة، فاتصل بخُوارزم شاه، وصار سيروان جماله، فرأى منه جَلَداً وأمانة، فقدّمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره، فولاّه مدينة زوْزَن، وكان عاقلاً ذا رأي، وحزم، وشجاعة، فتقدّم عند خُوارزم شاه تقدّماً كثيراً، فوثق به أكثر من جميع أمراء دولته، فقال أبو بكر لخُوارزم شاه: إنّ بلاد كرمان مجاورة لبلدي، فلو أضاف السلطان إليّ عسكراً لملكتُها في أسرع وقت. فسيّر معه عسكراً كثيراً فمضى إلى كرمان، وصاحبها اسمه حرب بن محمّد بن أبي الفضل الذي كان صاحب سِجِستان أيّام السلطان سَنجَر، فقاتله، فلم يكن له به قوّة، وضعُف، فملك أبو بكر بلاده في أسرع وقت، وسار منها إلى نواحي مكران فملكها كلّها إلى السند، من حدود كَابُل؛ وسار إلى هُرمُز، مدينة على ساحل بحر مكران، فأطاعه صاحبها، واسمه ملنك، وخطب بها لخُوارزم شاه، وحمل عنها مالاً، وخُطب له بقَلْهَات، وبعض عُمَان، لأنّ أصحابها كانوا يطيعون صاحب هُرمُز.

---

(١) في (ب): «وصار».

(٢) في (ب): «أمين».

وسببُ طاعتهم له، مع بُعد الشقّة، والبحر يقطع بينهم، أنّهم يتقرّبون إليه بالطاعة ليأمن أصحاب المراكب التي تسير إليهم عنده، فإنّ هُرمُز مرسى عظيم، ومجمع للتّجّار من أقاصي الهند (والصين)[1] واليمن[2]، وغيرها من البلاد، وكان بين صاحب هُرمُز وبين صاحب كِيش[3] حروب ومغاورات، وكلّ منهما ينهى أصحاب المراكب أن تُرسي ببلد خصمه، وهم كذلك إلى الآن.

وكان خُوارزم شاه (يصيف)[4] بنواحي سَمَرْقَند لأجل التتر أصحاب كشلي خان، لئلاّ يقصد بلاده؛ وكان سريع السير، إذا قصد جهةً سبق خبره إليها[5].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قُتل مؤيّد المُلْك الشّحريّ[6]، وكان قد وَزَرَ لشهاب الدّين الغُوريّ، ولتاج الدّين ألدُز بعده، وكان حَسَن السيرة، جميل الاعتقاد، محسناً إلى العلماء، وأهل الخير وغيرهم، يزورهم ويبرّهم، ويحضر الجمعة ماشياً وحده.

وكان سبب قتله أنّ بعض عسكر ألدُز كرهوه، وكان كلّ سنة يتقدّم إلى البلاد الحارّة بين يدي ألدُز، أوّل الشتاء، فسار هذه السنة كعادته، فجاء أربعون نفراً أتراكاً وقالوا له: السلطان يقول لك تحضر جريدة في عشرة نفر لمهمّ تجدّد؛ فسار معهم جريدة في عشرة مماليك، فلمّا وصلوا إلى نَهَوَنْد[7]، بالقرب من ماء السِّند، قتلوه وهربوا، ثمّ إنّهم ظفر بهم خُوارزم شاه محمّد فقتلهم[8].

[الوفيات]

وفيها، في رجب، تُوفّي الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهّاب بن عبد القادر الجيليّ، البغداديّ، ببغداد، وكان قد وليَ عدّة ولايات، وكان يُتّهم بمذهب

---

(١) من (ب).

(٢) في (ب) زيادة: «والحبش».

(٣) في (ب): «كيش الجزيرة المعروفة».

(٤) من (ب).

(٥) دول الإسلام ٢/ ١١٥ (باختصار شديد)، تاريخ الإسلام (حوادث ٦١١هـ.) ص ٥، البداية والنهاية ١٣/ ٦٧، العسجد المسبوك ٢/ ٣٤٥، ٣٤٦.

(٦) في (ب): «الملك محمد السجري».

(٧) في (ب): «مهوبد».

(٨) العسجد المسبوك ٢/ ٣٤٦، ٣٤٧.

الفلاسفة، حتّى إنّه رأى أبوه يوماً عليه قميصاً بخاريّاً، فقال: ما هذا القميص؟ فقال: بُخاريٌّ؛ فقال أبوه: هذا عجبٌ! ما زلنا نسمع: مسلم والبخاريّ، وأمّا كافر والبخاريّ فما سمعنا.

وأُخذت كُتُبه قبل موته بعدّة سنين، وأُظهرت في ملإٍ من الناس، ورُؤي فيها من تبخير النجوم ومخاطبة زُحل بالإلّهيّة، وغير ذلك من الكُفْريّات، ثمّ أُحرقت بباب العامّة، وحُبس، ثمّ أُفرج عنه بشفاعة أبيه، واستُعمل بعد ذلك.

وفيها أيضاً تُوفّي أبو العبّاس أحمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزّاهد ببغداد، وكان عالماً بالنحْو واللّغة.

وفي شعبان منها تُوفّي أبو المظفّر محمّد بن عليّ بن البلّ اللّوريّ الواعظ، ودُفن برباط على نهر عيسى، ومولده سنة عشرٍ وخمسمائة.

وفي شوّال منها تُوفّي عبد العزيز بن محمود بن الأخضر، وكان من فضلاء المحدّثين، وله سبعٌ وثمانون سنة.

٦١٢
ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وستمائة

ذكر قتل منكلي وولاية إيدغمش ما كان بيده من الممالك

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، انهزم منكلي، صاحب هَمَذان وأصفهان والرَّيّ وما بينها من البلاد، ومضى هارباً، فقُتل.

وسبب ذلك أنّه كان قد ملك البلاد، كما ذكرناه، وقتل إيدغمش فأُرسل إليه من الدّيوان الخليفيّ رسولٌ ينكر ذلك عليه، وكان قد أوحش الأمير أوزبك بن البهلوان، صاحب أذرَبِيجان، وهو صاحبه ومخدومه، فأرسل الخليفة إليه يحرّضه على منكلي ويَعدُه النُّصْرة، وأرسل أيضاً إلى جلال الدّين الإسماعيليّ، صاحب قلاع الإسماعيليّة ببلاد العجم، ألمُوت وغيرها، يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلي، واستقرّت القواعد بينهم على أن يكون للخليفة بعض البلاد، ولأوزبك بعضها، ويعطى جلال الدّين بعضها، فلمّا استقرّت القواعد على ذلك جهّز الخليفة عسكراً كثيراً، وجعل مُقدّمهم مملوكه مظفَّر الدّين سُنقُر، الملقّب بوجه السبُع، وأرسل إلى مظفّر الدّين كُوكُبريّ بن زين الدّين عليّ كوجك، وهو إذ ذاك صاحب إربل وشَهْرَزُور وأعمالها، يأمره أن يحضر بعساكره، ويكون مقدّم العساكر جميعها، وإليه المرجع في الحرب.

فحضر، وحضر معه عسكر الموصل وديار الجزيرة، (وعسكر حلب)[1]، فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا إلى هَمَذان، فاجتمعت العساكر كلّها فانزاح منكلي من بين أيديهم وتعلّق بالجبال، وتبِعوه، فنزلوا بسفح جبلٍ هو في أعلاه بالقرب من مدينة كَرَج، وضاقت الميرة والأقوات على العسكر الخليفيّ جميعه ومَن معهم، فلو أقام منكلي بموضعه لم يمكنهم المقام عليه أكثر من عشرة أيّام، لكنّه طمع فنزل ببعض

---

(١) من (أ).

عسكره من الجبل مقابل الأمير أوزبك، فحملوا عليه، فلم يثبت أوزبك، ومضى منهزماً، فعاد أصحاب منكلي وصعدوا الجبل، وعاد أوزبك إلى خيامه، فطمع منكلي حينئذٍ، ونزل من الغد في جميع عسكره، واصطفّت العساكر للحرب، واقتتلوا أشدّ قتال يكون، فانهزم منكلي وصعِد الجبل، فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود إليه، وكان قُصاراهم العَود عنه، لكنّه اتّخذ الليل جملاً، وفارق موضعه ومضى منهزماً، فتبِعه نفرٌ يسيرٌ من عسكره، وفارقه الباقون وتفرّقوا أيدي سبا.

واستولى عسكر الخليفة وأوزبك على البلاد، فأعطى جلال الدّين، ملك الإسماعيليّة، من البلاد ما كان استقرّ له، وأخذ[1] الباقي أوزبك، فسلّمه إلى أغلمش مملوك أخيه، وكان قد توجّه إلى خُوارزم شاه علاء الدّين محمّد، وبقي عنده، ثمّ عاد عنه، وشهد الحرب وأبلى فيها، (فولاّه أوزبك البلاد)[2]، وعاد كلّ طائفة من العسكر إلى بلادهم.

وأمّا منكلي فإنّه مضى منهزماً إلى مدينة سَاوةَ، وبها شِحنةٌ هو صديقٌ له، فأرسل إليه يستأذنه في الدّخول إلى البلد، فأذِن له، وخرج إليه فلقيه، وقبّل الأرض بين يديه، وأدخله البلد، وأنزله في داره، ثمّ أخذ سلاحه، وأراد أن يقيّده ويرسله إلى أغلمش، فسأله أن يقتله هو ولا يرسله، فقتله، وأرسل رأسه إلى أوزبك، وأرسله أوزبك إلى بغداد، وكان يوم دخولها يوماً مشهوداً إلاّ أنّه لم تتمّ المسرّة للخليفة بذلك، فإنّه وصل ومات ولده في تلك الحال، فأعيد ودُفن[3].

ذكر وفاة ابن الخليفة

في هذه السنة، في العشرين من ذي القعدة، تُوفّي ولد الخليفة، وهو الأصغر، وكان يلقّب الملك المعظّم، واسمه أبو الحسن عليّ[4]، وكان أحبّ ولدَي الخليفة إليه، وقد رشّحه لولاية العهد بعده، وعزل ولده الأكبر عن ولاية العهد واطّرحه لأجل هذا الولد.

---

(١) في (أ): «ملك الإسماعيلية بعض البلاد وأخذ».

(٢) من (ب).

(٣) مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٥٧٢، ٥٧٣، ذيل الروضتين ٩١، ٩٢، مفرّج الكروب ٣/ ٢٢٩، ٢٣٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١١٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦١٢هـ.) ص ١٠.

(٤) أنظر عن (أبي الحسن علي ولد الخليفة) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٢هـ.) ص١١٥.

وكان، رحِمه الله، كريماً، كثير الصدقة والمعروف، حسن السيرة، محبوباً إلى الخاصّ والعامّ؛ وكان سبب موته أنّه أصابه إسهال فتُوُفّي، وحزن عليه الخليفة حزناً لم يُسمع بمثله، حتّى إنّه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينهاهم عن إنفاذ رسول إليه يُعزّيه بولده، ولم يقرأ كتاباً، ولا سمع رسالة، وانقطع، وخلا بهمومه وأحزانه، ورُؤي عليه من الحزن والجزع ما لم يُسمع بمثله.

ولمّا تُوفّي أُخرج نهاراً، ومشى جميع الناس بين يدي تابوته إلى تربة جدّته عند قبر معروف الكرْخيّ، فدُفن عندها، ولمّا أُدخل التابوت أُغلقت الأبواب، وسُمع الصراخ العظيم من داخل التربة، (فقيل إنّ ذلك صوت الخليفة)[1].

وأمّا العامة ببغداد فإنّهم وجدوا عليه وجداً شديداً، ودامت المناحات عليه في أقطار بغداد ليلاً ونهاراً، ولم يبق ببغداد محلّة إلاّ وفيها النَّوح، ولم تبق امرأة إلاّ وأظهرت الحزن، وما سُمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزّمان وحديثه.

وكان موته وقت وصول رأس مَنكلي إلى بغداد، فإنّ الموكب أمر بالخروج إلى لقاء الرأس، فخرج الناس كافّةً، فلمّا دخلوا بالرأس إلى رأس دَرب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة، فأُعيد الرأس، وهذا دأب الدنيا، لا يصفو[2] أبداً فرحها من ترح، وقد تخلص مصائبها من شائبة الفرح.

ذكر ملك خُوارزم شاه غزنة وأعمالها

في هذه السنة، في شعبان، ملك خُوارزم شاه محمّد بن تكش مدينة غَزْنَة وأعمالها.

وسبب ذلك أنّ خُوارزم شاه لمّا استولى على عامّة خُراسان وملك باميَان وغيرها، أرسل إلى تاجّ الدّين[3]، صاحب غَزْنَة، وقد تقدّمت أخباره حتّى[4] ملكها، يطلب منه أن يخطب له، ويضرب السكّة باسمه، ويرسل إليه فيلاً واحداً ليصالحه ويُقرّ بيده غَزْنَة، ولا يعارضه فيها، فأحضر الأمراء وأعيان دولته واستشارهم.

وكان فيهم أكبر أمير اسمه قتلغ تِكين، وهو من مماليك شهاب الدّين الغُوريّ

---

(١) من (أ).

(٢) في (أ): «لا يخلص».

(٣) زاد في (ب): «الدز».

(٤) في (أ): «حين».

أيضاً، وإليه الحُكم في دولة ألدُز، وهو النائب عنه بغَزنَة، فقال: أرى أن تخطب له، وتُعطيه ما طلب، وتستريح من الحرب والقتال، وليس لنا بهذا السلطان قوّة.

فقال الجماعة مثل قوله، فأجاب إلى ما طلب منه، وخطب لخُوارزم شاه، وضرب السكّة باسمه، وأرسل إليه فيلاً، وأعاد رسوله إليه، ومضى إلى الصيد.

فأرسل قتلغ تكين، والي غَزْنَة، إلى خُوارزم شاه يطلبه ليسلّم إليه غَزْنَة، فسار مُجِدّاً، وسبق خبره، فسلّم إليه قتلغ تكين غَزْنَة وقلعتها، فلمّا دخل إليها قتل مَن بها من عسكر الغُوريّة لا سيّما الأتراك، فوصل الخبر إلى ألدُز بذلك، فقال: ما فعل قتلغ تكين، وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها؟ فقيل: هو الذي أحضره وسلّم إليه؛ فمضى هارباً هو ومَن معه إلى لهاوور، وأقام خُوارزم شاه بغَزْنَة، فلمّا تمكّن منها أحضر قتلغ تكين فقال له: كيف حالك مع ألدُز، وكان عالماً به، وإنّما أراد أن تكون له الحجّة عليه. فقال: كلانا مماليك شهاب الدّين، ولم يكن ألدُز يقيم بغَزْنَة إلاّ أربعة أشهر الصيف، وأنا الحاكم فيها، والمرجع إليّ في كلّ الأمور[1].

فقال له خُوارزم شاه: إذا كنت لا ترعى لرفيقك[2] ومَن أحسن إليك صُحبته وإحسانه، فكيف يكون حالي أنا معك، وما الذي تصنع مع ولدي إذا تركتُه عندك؟

فقبض عليه، وأخذ منه أموالاً جمّةً حملها ثلاثون دابّة من أصناف الأموال والأمتعة، وأحضر أربع مائة مملوك، فلمّا أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدّين بغَزْنَة مع جماعة من عسكره وأمرائه.

(وقيل إنّ ملك خُوارزم شاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستّمائة)[3].

ذكر استيلاء ألدُز على لهاوور وقتله

لمّا هرب ألدُز من غَزنة إلى لهَاوور لقيه صاحبها ناصر الدّين قباجة[4]، وهو من مماليك شهاب الدّين الغُوريّ أيضاً[5]، وله من البلاد لهَاوور، ومُلتان، وأُوجَة،

---

(١) في الأوربية: «أمور».

(٢) في (أ): «لرفقتك».

(٣) من (أ). والخبر في: تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢٣١، والمختصر في أخبار البشر ٣/١١٩، ودول الإسلام ٢/١١٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦١٢هـ.) ص ٨، والعسجد المسبوك ٢/٣٤٩ـ ٣٥١.

(٤) في الباريسية: «قراجة».

(٥) في (أ): «أيضاً وحاربه فانهزم قراجة ومضى هارباً واستولى الدز على لهاوور».

ودَيْبُل[١]، وغير ذلك، إلى ساحل البحر، ومعه نحو خمسة عشر ألف فارس؛ وكان قد بقي مع ألدُز نحو ألفٍ وخمسمائة فارس، فوقع بينهما مصافّ، واقتتلوا، فانهزمت ميمنة ألدُز وميسرته، وأُخذت الفيَلة التي معه، ولم يبق له غير فيلَيْن معه في القلب.

فقال الفيّال: إذاً أخاطر بسعادتك، وأمر أحد الفيلَيْن أن يحمل على العلم الذي لقباجة يأخذه، وأمر الفيل الآخر[٢] الذي له أيضاً أن يأخذ الجتر الذي له، فأخذه أيضاً، والفيَلة المعلّمة تفهم ما يقال لها؛ هذا رأيناه، فحمل[٣] الفيلان، وحمل معهما ألدُز فيمن بقي عنده من العسكر، وكشف رأسه، وقال بالعجميّة ما معناه: إمّا مُلك، وإما هُلك! واختلط الناس بعضهم ببعض، وفعل الفيلان ما أمرهما الفيّال من أخذ العَلَم والجتر، فانهزم قباجة وعسكره، وملك ألدُز مدينة لهَاوور.

ثمّ سار إلى بلاد الهند ليملك مدينة دَهْلَة وغيرها ممّا بيد المسلمين، وكان صاحب دَهْلَة أميراً اسمه الترمش، وَلَقَبُه شمس الدّين، وهو من مماليك قُطب الدّين أيبَك، مملوك شهاب الدّين أيضاً، كان قد ملك الهند بعد سيّده، فلمّا سمع به الترمش سار إليه في عساكره كلّها، فلقيه عند مدينة سَماتا، فاقتتلوا، فانهزم ألدُز وعسكره، وأُخذ وقُتل.

وكان ألدُز محمودَ السيرة في ولايته، كثير العدل والإحسان إلى الرعيّة، لا سيّما التجّار والغرباء، ومن محاسن أعماله أنّه كان له أولاد، ولهم معلّم يعلّمهم، فضرب المعلّم أحدهم فمات، فأحضره ألدُز وقال له: يا مسكين! ما حملك على هذا؟ فقال: والله ما أردتُ إلاّ تأديبه، فاتّفق أن مات. فقال: صدقتَ؛ وأعطاه نفقة، وقال له: تغيّب، فإنّ أمّه لا تقدر على الصبر، فربّما أهلكتْك، ولا أقدر أمنع عنك. فلمّا سمعت أمّ الصبيّ بموته طلبت الأستاذ لتقتله، فلم تجده، فسلم، وكان هذا من أحسن ما يُحكى عن أحد من الناس[٤].

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «ملتان واحة والديبل».

(٢) في (ب): «الفيل الآخر أن يحمل على الجتر الذي له ويأخذه أيضاً».

(٣) في الأوربية: «فحملت».

(٤) العسجد المسبوك ٢/ ٣٥٠، ٣٥١.

ذكر عدّة حوادث

[الوفيات]

في هذه السنة تُوفّي الوجيه المبارك بن أبي الأزهر[١] سعيد[٢] بن الدّهّان الواسطيّ النّحْويّ، الضرير، كان نحريراً فاضلاً، قرأ على الكمال بن الأنباريّ وعلى غيره، وكان حَنبلِيّاً، فصار حَنَفيّاً، ثمّ صار شافعِيّاً، فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتيّ[٣]:

ألاَ مُبْلغاً[٤] عنّي الوجيهَ رِسالةً ... وإن كان لا تُجدي لَدَيه الرسائلُ

تمذهبْتَ للنُّعمان من بعد حَنْبَلٍ[٥] ... وفارقتَه إذ عوّزتْكَ المآكلُ[٦]

وما اخترتَ رأيَ الشافعيّ تَدَيّناً[٧] ... ولكنّما تَهوَى الذي هُوَ حَاصِلُ

وعمّا قليلٍ أنتَ لا شكّ صائرٌ ... إلى مالِكٍ، فافطَن لما أنا قائلُ

---

(١) هو «المبارك بن المبارك بن أبي الأزهر»، كما في مصادر ترجمته التي حشدتها في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٢هـ.) ص١٢٥.

(٢) في (ب): «أبي طالب المبارك بن أبي الأريم سعيد».

(٣) هو: محمد بن أحمد بن سعيد بن أحمد المعروف بالمؤيد المتوفى سنة ٥٩٩هـ.

(٤) في الأوربية: «ألا من مبلغ»، وفي تاريخ الإسلام: «ومن مبلغ».

(٥) في تاريخ الإسلام: «بعد ابن حنبل».

(٦) في تاريخ الإسلام: «وذلك لمّا أعوزتْكَ المآكلُ».

(٧) في تاريخ الإسلام: «ديانة».

٦١٣
ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر صاحب حلب

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، تُوفّي الملك الظاهر[١] غازي بن صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، وهو صاحب مدينة حلب ومَنْبِج وغيرهما من بلاد الشام، وكان مرضه إسهالاً، وكان شديد السيرة، ضابطاً لأموره كلّها، كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة، عظيم العقوبة على الذَّنْب، لا يرى الصفح، وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف[٢] البلاد، والشعراء، وأهل الدّين وغيرهم، فيكرمهم، ويجري عليهم الجاري الحسن.

ولمّا اشتدّت علّته عهد بالمُلك بعده لولدٍ له صغير (اسمه محمّد، ولَقَبه الملك العزيز غياث الدّين)[٣]، عمره ثلاث سنين، وعدل عن ولدٍ كبير لأنّ الصغير كانت أمّه ابنة عمّه الملك العادل (أبي بكر بن أيّوب)[٤]، صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد، فعهد بالملك له ليُبقي عمّه البلاد عليه، ولا ينازعه فيها.

ومن أعجب ما يُحكى أنّ الملك الظاهر، قبل مرضه، أرسل رسولاً إلى عمّه العادل بمصر، يطلب منه أن يحلف لولده الصغير، فقال العادل: سبحان الله! أيّ حاجة إلى هذه اليمين؟ الملك الظاهر مثل بعض أولادي. فقال الرسول: قد طلب هذا واختاره، ولا بُدّ من إجابته إليه. فقال العادل: كم من كبش في المرعى وخروف عند القصّاب[٥]؛ وحلف.

---

(١) أنظر عن (الملك الظاهر) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٣هـ.) ص ١٥٨. وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) في (أ): «أهل».

(٣) من (أ).

(٤) في (أ).

(٥) في (ب): «عند الشوا».

فاتّفق في تلك الأيّام أن تُوفّي الملك الظاهر والرسول في الطريق، ولمّا[1] عهِد الظاهر إلى ولده بالمُلك جعل أتابكه ومربّيه خادماً[2] روميّاً، اسمه طُغرل، ولَقَبُه شهاب الدّين، وهو من خيار عباد الله، كثير الصدقة والمعروف.

ولمّا تُوفّي الظاهر أحسن شهاب الدّين هذا السيرةَ في الناس، وعدل فيهم، وأزال كثيراً من السُنَن الجارية، وأعاد أملاكاً كانت قد أُخذت من أربابها، وقام بتربية الطفل أحسن قيام، وحفظ بلاده، واستقامت الأمور بحسن سيرته وعدله، وملك ما كان يتعذّر على الظاهر مُلكه، فمن ذلك تلّ باشر، كان الملك الظاهر لا يقدر [أن] يتعرّض إليه، فلمّا تُوفّي ملكها[3] كيكاوش[4]، ملك الروم، كما نذكره إن شاء الله تعالى، انتقلت إلى شهاب الدّين، وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة، وأعفّ عن أموال الرعيّة، وأقرب إلى الخير منهم، ولا أعلم اليوم في وُلاة أمور المسلمين أحسن سيرةً منه، فالله يُبقيه، ويدفع عنه، فلقد بلغني عنه كلّ حسن وجميل.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، وقع بالبصرة بَرَدٌ كثير، وهو مع كثرته عظيم القدر؛ قيل: كان أصغره مثل النارَنْجَة الكبيرة، وقيل في أكبره ما يستحي الإنسان [أن] يذكره، فكسر كثيراً من رؤوس النخيل[5].

وفي المحرّم أيضاً سيّر الخليفة الناصر لدين الله ولدَي ابنه المعظّم عليّ إلى تُستَر، وهما المؤيّد والموفّق، وسار معهما مؤيّد الدّين النائب عن الوزارة، وعزّ الدّين الشرابيّ، فأقاما بها يسيراً، ثمّ عاد الموفّق مع الوزير والشرابيّ إلى بغداد أواخر ربيع الآخر[6].

وفيها، في صفر، هبّت ببغداد ريح سوداء شديدة، كثيرة الغبار والقتام، وألقت

---

(١) في (أ): «والرسول عند الملك العادل ولما».
(٢) في (أ): «خادم خُصيّ».
(٣) في (ب): «ملكها الروم وأخذها».
(٤) ويقال: «كيكاوس» بالسين المهملة.
(٥) تاريخ الإسلام (حوادث ٦١٣هـ.) ص ١٢، العسجد المسبوك ٢/ ٣٥٤.
(٦) العسجد المسبوك ٢/ ٣٥٤، ٣٥٥.

رملاً كثيراً، وقلعت كثيراً من الشجر، فخاف الناس وتضرّعوا، ودامت من العشاء الآخرة إلى ثلث الليل وانكشفت.

[الوفيات]

وفيها تُوفّي التّاج زيد بن الحسن[1] بن زيد الكِنْديّ أبو اليُمن، البغداديّ المولد، والمنشأ، انتقل إلى الشام فأقام بدمشق، وكان إماماً في النحْو واللغة، وله الإسناد العالي في الحديث؛ وكان ذا فنون كثيرة من أنواع العلوم، رحمه الله.

---

(١) أنظر عن (زيد بن الحسن) في تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦١١-٦٢٠هـ.) ص١٤١ رقم ١٤٣، وفيه حشدت مصادر ترجمته.

٦١٤
ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

ذكر مُلك خُوارزم شاه بلد الجبل

في هذه السنة سار خُوارزم شاه علاء الدّين محمّد بن تكش إلى بلاد الجبل فملكها.

وكان سبب حركته، في هذا الوقت، أشياء، أحدها: أنّه كان قد استولى على ما وراء النهر، وظفر بالخطا، وعظُم أمره، وعلا شأنه، وأطاعه القريب والبعيد؛ ومنها: أنّه كان يهوى أن يُخطب له ببغداد، ويُلقَّب بالسلطان، وكان الأمر بالضدّ (لأنّه كان)[1] لا يجد من ديوان الخلافة قبولاً؛ وكان سبيله إذا ورد إلى بغداد [أن] يقدّم غيره عليه، ولعلّ في عسكره مائة مثل الذي يقدّم سبيله عليه، فكان إذا سمع ذلك يُغضبه؛ ومنها: أنّ أغلمش لمّا ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها، كما ذكرناه، فلمّا قتله الباطنيّة غضب له، وخرج لئلاّ تخرج البلاد عن طاعته، فسار مُجِداً في عساكر تطبّق الأرض، فوصل إلى الرَّيّ فملكها.

وكان أتابك سعد بن دكلا، صاحب بلاد فارس، لمّا بلغه مقتل أغلمش جمع عساكره وسار نحو بلاد الجبل طمعاً في تملّكها لخُلُوّها عن حامٍ وممانع، فوصل إلى أصفهان، فأطاعه أهلها، وسار منها يريد الرَّيّ، ولم يعلم بقدوم خُوارزم شاه، فلقيه مقدّمة خُوارزم شاه فظنّها عساكر تلك الدّيار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد، فقاتلهم، وجدّ في محاربتهم حتّى كاد يهزمهم[2].

فبينما هو كذلك إذ هو قد ظهر له جتر خُوارزم شاه، فسأل عنه، فأُخبر به

---

(١) من (ب).

(٢) في الأوربية: «يهزمنهم».

فاستسلم، وانهزمت عساكره، وأُخذ أسيراً، وحُمل إلى بين يدي خُوارزم شاه، فأكرمه، ووعده الإحسان والجميل، وأمّنه على نفسه، واستحلفه على طاعته، واستقرّت القاعدة بينهما على أن يسلّم بعض البلاد إليه، ويبقي بعضها[1]، وأطلقه وسيّر معه جيشاً إلى بلاد فارس ليسلّم إليهم ما استقرّت القاعدة عليه؛ فلمّا قدِم على ولده الأكبر رآه قد تغلّب على بلاد فارس، فامتنع من التسليم إلى أبيه.

ثمّ إنّه ملك البلاد، كما نذكره، وخطب فيها لخُوارزم شاه، وسار خُوارزم شاه إلى ساوة فملكها، وأقطعها لعماد الملك عارض جيشه، وهو من أهلها، ثمّ سار إلى قَزوِين وزَنْجَان وأبهَر، فملكها كلّها بغير ممانع ولا مدافع، ثمّ سار إلى هَمَذان فملكها، وأقطع البلاد لأصحابه، وملك أصفهان، وكذلك قُمّ وقاشان، واستوعب مُلك جميع البلاد، واستقرّت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان، صاحب أذرَبِيجان وأرّان[2]، بأن يخطب له أوزبك في بلاده ويدخل في طاعته.

ثمّ إنّه عزم على المسير إلى بغداد، فقدّم بين يديه أميراً كبيراً في خمسة عشر ألف فارس، وأقطعه حُلوان، فسار حتّى وصل إليها؛ ثمّ أتبعه بأمير آخر، فلمّا سار عن هَمَذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج ما لم يُسمع بمثله، فهلكت دوابّهم، ومات كثير منهم، وطمع فيمن بقي بنو ترجم الأتراك، وبنو هكّار الأكراد، فتخطّفوهم، فلم يرجع منهم إلى خُوارزم شاه إلاّ اليسير، فتطيّر خُوارزم شاه من ذلك الطريق، وعزم على العَود إلى خُراسان خوفاً من التتر، لأنّه ظنّ أنّه يقضي حاجته، ويفرغ من إرادته في المدّة اليسيرة، فخاب ظنّه، ورأى البيكار بين يديه طويلاً، فعزم على العَود، فولّى هَمَذان أميراً من أقاربه من جهة والدته، يقال له طائيسي[3]، وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدّين، وجعل معه متولّياً لأمر دولته عماد المُلك الساويّ، وكان عظيم القدر عنده، وكان يحرص على قصد العراق.

وعاد خُوارزم شاه إلى خُراسان، فوصل إلى مَرْو في المحرّم سنة خمس عشرة وستّمائة، وسار مَن وجّهه إلى ما وراء النهر؛ ولمّا قدِم إلى نَيسابور جلس يوم الجمعة عند المِنبر، وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله، وقال: إنّه قد مات؛

---

(١) في (ب): «ويبقى معه».

(٢) في (ب): «وأراد أن».

(٣) في النسخة رقم ٧٤٠ «طاسني».

وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستّمائة؛ ولمّا قدم مَرْو قطع الخطبة بها، وكذلك ببَلْخَ وبُخارى وسَرْخَس، وبقي خُوارزم (وسَمَرْقَند)[1] وهَراة لم تُقطع الخطبة فيها إلاّ عن قصدٍ لتركها، لأنّ البلاد كانت لا تعارض من أشباه هذا، إن أحبّوا[2] خطبوا، وإن أرادوا قطعوا، فبقيت كذلك إلى أن كان منه ما كان.

وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العبّاسيّ لم يقصده أحدٌ بأذًى إلاّ لقِيه فِعله، وخبث نيّته، لا جَرَم لم يمهل خُوارزم شاه هذا حتّى جرى له ما نذكره ممّا لم يُسمع[3] بمثله في الدّنيا قديماً ولا حديثاً[4].

ذكر ما جرى لأتابك سعد مع أولاده

لمّا قُتل أغلمش، صاحب بلاد الجبل، هَمَذان وأصفهان[5] وما بينهما من البلاد، جمع أتابك سعد بن دكلا، صاحب فارس، عساكره وسار عن بلاده إلى أصفهان فملكها وأطاعه أهلها، فطمع في تلك البلاد[6] جميعها، فسار عن أصفهان إلى الرَّيّ، فلمّا وصل إليها لقي عساكر خُوارزم شاه قد وصلت، كما ذكرناهُ، فعزم على محاربة مقدّمة العسكر، فقاتلها حتّى كاد يهزمها، فظهرت عساكر خُوارزم شاه، ورأى الجتر، فسُقط في يده، وألقى نفسه، وضعُفت قوّته وقوّة عسكره، فولّوا الأدبار، وأُخذ أتابك سعد أسيراً، وأُحضر بين يدي خُوارزم شاه، فأكرمه، وطيّب نفسه، ووعده الإحسان واستصحبه[7] معه، إلى أن وصل إلى أصفهان، فسيّره منها إلى بلاده، وهي تجاورها، وسيّر معه عسكراً مع أمير كبير ليتسلّم منه ما كان استقرّ بينهما، فإنّهما اتّفقا على أن يكون لخُوارزم شاه بعض البلاد ولأتابك سعد بعضها، وتكون الخطبة لخُوارزم شاه في البلاد جميعها.

وكان أتابك سعد قد استخلف ابناً له على البلاد، فلمّا سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالمملكة وقطع خطبة أبيه، فلمّا وصل أبوه ومعه عسكر خُوارزم شاه

---

(١) من (ب).
(٢) في (ب): «إن أحبّوا وان».
(٣) في (ب): «جرى ما جرى ما لم يسمع».
(٤) العسجد المسبوك ٢/ ٣٥٥، ٣٥٦.
(٥) في (ب): «وأصفهان وغيرهما وجمع».
(٦) في (ب): «فطمع أن يملك البلاد».
(٧) في الأوربية: «واستصحب».

امتنع الابن من تسليم البلاد إلى أبيه، وجمع العساكر وخرج يقاتله، فلمّا تراءى الجمعان انحازت عساكر فارس إلى صاحبهم أتابك سعد، وتركوا ابنه في خاصّته، فحمل على أبيه، فلمّا رآه أبوه ظنّ أنّه لم يعرفه، فقال له: أنا فلان! فقال: إيّاك أردُت؛ فحينئذٍ امتنع منه وولّى الابن منهزماً.

ووصل أتابك سعد إلى البلاد فدخلها مالكاً لها وأُخذ ابنه أسيراً، فسجنه إلى الآن، إلاّ أنّني سمعتُ الآن، وهو سنة عشرين وستّمائة، أنّه قد خفّف حبسه ووسّع عليه.

ولمّا عاد خُوارزم شاه إلى خُراسان غدر سعد بالأمير الذي عنده فقتله، ورجع عن طاعة خُوارزم شاه، واشتغل خُوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره، ولكنّ اللهَ انتقم له بابنه غياث الدّين، كما ذكرناه سنة عشرين وستّمائة، لأنّ سعداً كفر إحسانَ خُوارزم شاه وكُفْر الإحسان[1] عظيم العقوبة[2].

ذكر مدينة دِمياط وعَودها إلى المسلمين

كان من أوّل هذه الحادثة إلى آخرها أربع سنين غير شهر[3]، وإنّما ذكرناها هاهنا لأنّ ظهورهم كان فيها، وسقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضاً، فنقول: في هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال، إلاّ أنّ المتولّي لها كان صاحب رومية، لأنّه يتنزّل عند الفرنج بمنزلة عظيمة، لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرّهم وساءهم، فجهّز العساكر من عنده مع جماعة من مقدّمي الفرنج، وأمر غيره من ملوك الفرنج إمّا أن يسير بنفسه، أو يرسل جيشاً، ففعلوا ما أمرهم، فاجتمعوا بعكّا من ساحل الشام.

وكان الملك العادل أبو بكر بن أيّوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، ومنها إلى لُدّ، وبرز[4] الفرنج من عكّا ليقصدوه، فسار العادل نحوهم[5]، فوصل إلى نابلس عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد ممّا يلي عكّا ليحميها منهم،

---

(١) في الأوربية: «الأحسن».

(٢) زاد في (ب): «والعقوبة عليه لازمة». والخبر في: سيرة جلال الدين منكبرتي، للنسوي ص ٥٤، والعسجد المسبوك ٢/٣٥٦ باختصار، ونهاية الأرب ٢٧/٢٣١.

(٣) في (أ): «سنين وشهور».

(٤) في (أ): «ومنها إلى لد، إلى البيت المقدس وبرز».

(٥) في (أ): «فسار من القدس نحوهم».

فساروا هم فسبقوه[1]، فنزل على بَيسان من الأردنّ، فتقدّم الفرنج إليه في شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنّه في قلّة من العسكر، لأنّ العساكر كانت متفرّقة في البلاد.

فلمّا رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه، خوفاً من هزيمة تكون عليه، وكان حازماً، كثير الحذر، ففارق بَيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب[2] منها، ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر، فوصل إلى مرج الصُّفّر فنزل فيه.

وكان أهل بَيسان، وتلك الأعمال، لمّا رأوا الملك العادل عندهم اطمأنّوا، فلم يفارقوا بلادهم ظنّاً منهم أنّ الفرنج لا يُقدمون عليه، فلمّا أقدموا سار على غفلة من الناس، فلم يقدر على النجاة إلاّ القليل، فأخذ الفرنج كلّ ما في بَيسان من ذخائر قد جُمعت، وكانت كثيرة، وغنموا شيئاً كثيراً، ونهبوا البلاد من بَيسان إلى بانياس، وبثّوا السرايا في القرى فوصلت إلى خِسفِين، ونوى وأطراف البلاد، ونازلوا بانياس، وأقاموا عليها ثلاثة أيّام، ثمّ عادوا عنها إلى مرج عكّا ومعهم من الغنائم والسبي والأسرى ما لا يُحصى كثرةً، سوى ما قتلوا، وأحرقوا، وأهلكوا، فأقاموا أيّاماً استراحوا [خلالها].

ثمّ جاؤوا إلى صور، وقصدوا بلد الشقيف، ونزلوا بينهم[3] وبين بانياس مقدار[4] فرسخَيْن، فنهبوا البلاد: صيدا والشقيف[5]، وعادوا إلى عكّا؛ وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد، والذي سلم من تلك البلاد كان مخفّاً حتّى قدر على النجاة.

ولقد بلغني أنّ العادل لمّا سار إلى مرج الصُّفّر رأى في طريقه رجلاً يحمل شيئاً، وهو يمشي تارة، وتارة يقعد ليستريح، فعدل العادل إليه وحده، فقال له: يا شيخ لا تعجَل، وارفق بنفسك! فعرفه الرجل، فقال: يا سلطان المسلمين! أنت لا تعجل، فإنّا[6] إذا رأيناك قد سرتَ إلى بلادك وتركتَنا مع الأعداء كيف لا نعجل!

(وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلاّ يخاطر باللقاء على حال تفرُّق من العساكر)[7].

---

(١) في (أ): «فساروهم إلى المكاء بمكان يُعرف بخربة اللصوص فسبقوه».

(٢) في (أ): «ليلقاهم بالقرب».

(٣) في (ب): «وبقي بينهم».

(٤) في (ب): «قريب».

(٥) الدر المطلوب ١٩٣.

(٦) في (أ): «أوانا».

(٧) ما بين القوسين من (أ).

ولمّا نزل العادل على مرج الصُّفَّر سيّر ولده الملك المعظّم عيسى، وهو صاحب دمشق، في قطعةٍ صالحة من الجيش إلى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدّس.

ذكر حصر الفرنج قلعة الطُّور وتخريبها

لمّا نزل الفرنج بمرج عكّا تجهّزوا، وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها، وقصدوا قلعة الطُّور، وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكّا كان العادل قد بناها عن قريب، فتقدّموا إليها وحصروها وزحفوا إليها، وصعدوا في جبلها حتّى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونه.

فاتّفق أنّ بعض المسلمين ممّن فيها قتل بعض ملوكهم، فعادوا عن القلعة فتركوها، وقصدوا عكّا، وكانت مدّة مقامهم على الطوّر سبعة عشر يوماً.

ولمّا فارقوا الطّور أقاموا قريباً، ثمّ ساروا في البحر إلى ديار مصر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، فتوجّه الملك المعظّم إلى قلعة الطّور فخرّبها إلى أن ألحقها بالأرض لأنّها بالقرب من عكّا ويتعذّر حفظها[1].

ذكر حصر الفرنج دِمياط إلى أن ملكوها

لمّا عاد الفرنج من حصار الطّور أقاموا بعكّا إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستّمائة، فساروا في البحر إلى دِمياط، فوصلوا في صفر، فأرسوا على برّ الجِيزَة، بينهم وبينَ دمياط النيل، فإنّ بعض[2] النيل يصبّ في البحر المالح عند دمياط، [وقد بني في النيل برج كبير منيع، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غِلاظ، ومدّوها في النيل إلى سور دِمياط][3] لتمنع[4] المراكب الواصلة في البحر المالح أن تصعد في النيل إلى ديار مصر، ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدوّ لا يقدر أحدٌ على

---

(١) التاريخ المنصوري ٧٣، مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٥٨٣، ذيل الروضتين ١٠٢، تاريخ الزمان ٢٥٢، مفرّج الكروب ٢٥٤ ـ ٢٥٧، زبدة الحلب ٣/ ١٨٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١١٨، الدر المطلوب ١٨٧ و١٩٠، ١٩١، نهاية الأرب ٢٩/ ٧٨ ـ ٨١، دول الإسلام ٢/ ١١٦، ١١٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٦١٤هـ.) ص ١٥ ـ ١٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٣٤، الإعلام والتبيين ٤٧، البداية والنهاية ١٣/ ٧٦، ٧٧، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٤٤، السلوك ج ١، ق ١/ ١٨٦، ١٨٧، شفاء القلوب ٢٢٤، ٢٢٥، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٥٩.

(٢) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «بحر».

(٣) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

(٤) في الباريسية: «ليمنع».

منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها.

فلمّا نزل الفرنج على برّ الجيزة، وبينهم وبين دِمياط النيل، بنوا عليه[1] سوراً، وجعلوا خندقاً يمنعهم ممّن يريدهم، وشرعوا في قتال مَن بدِمياط، وعملوا آلات، ومَرمّات، وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه.

وكان البرج مشحوناً بالرجال، وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل، وهو صاحب ديار مصر، بمنزلة تُعرف بالعادليّة، بالقرب من دِمياط، والعساكر متّصلة من عنده إلى دِمياط، ليمنع العدوّ من العبور إلى أرضها.

وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه، فلم يظفروا منه بشيء، وكُسّرت مرمّاتهم وآلاتهم، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله، فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه؛ فلمّا ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكّموا في البرّ، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل، ثمّ إنّهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً، كثيراً متتابعاً حتّى قطعوه، فلمّا قُطع أخذ الملك الكامل عدّة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرّقها في النيل، فمنعت المراكب من سلوكه.

فلمّا رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يُعرف بالأزرق، كان النيل يجري فيه قديماً، فحفروا ذلك الخليج وعمّقوه فوق المراكب التي جُعلت في النيل، وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح، وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بورة، على أرض الجيزة أيضاً، مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك، فإنّهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه فيها؛ كانت دِمياط تحجز بينهم وبينه، فلمّا صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء، وزحفوا غير مرّة، فلم يظفروا بطائل.

ولم يتغيّر على أهل دِمياط شيء لأنّ الميرة والأمداد متّصلة بهم، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج، فهم ممتنعون لا يصل إليهم أذًى، وأبوابها مفتّحة، وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر.

فاتّفق، كما يريد الله عزّ وجلّ، أنّ الملك العادل تُوفّي في جُمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستّمائة، على ما نذكره إن شاء الله، فضعُفت نفوس الناس لأنّه

---

(١) في الأوروبية: «عليهم».

السلطان حقيقة، وأولاده، وإن كانوا ملوكاً إلاّ أنّهم بحكمه، والأمر إليه، وهو ملّكهم البلاد، فاتّفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدوّ.

وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدّين أحمد بن عليّ، ويُعرف بابن المشطوب، وهو من الأكراد الهكّاريّة، وهو أكبر أمير بمصر، وله لفيفٌ كثير، وجميع الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه لا سيّما الأكراد، فاتّفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء، وأرادوا أن يخلعوا الملك الكامل من المُلك ويملّكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد، فبلغ الخبر إلى الكامل، ففارق المنزلة ليلاً جريدة، وسار إلى قرية يقال لها أشموم طَنّاح، فنزل عندها، وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم، فركب كلّ إنسان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلاّ اليسير الذي يخفّ حمله، وتركوا الباقي بحاله من ميرة، وسلاح، ودوابّ، وخيام وغير ذلك، ولحِقوا بالكامل.

وأمّا الفرنج فإنّهم أصبحوا من الغد، فلم يروا من المسلمين أحداً على شاطىء النيل كجاري عادتهم، فبقوا لا يدرون ما الخبر، وإذ قد أتاهم مَن أخبرهم الخبر على حقيقته، فعبروا حينئذٍ النيل إلى برّ دِمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع، وكان عبورهم في العشرين من ذي القعدة سنة خمس عشرة وستّمائة، فغنموا ما في معسكر المسلمين، فكان عظيماً يُعجز العادّين.

وكان الملك الكامل يفارق الدّيار المصريّة لأنّه لم يثق بأحد من عسكره، وكان[1] الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقّة، فاتّفق من لطف الله تعالى بالمسلمين أنّ الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومَيْن، والناس في أمر مريج، فقوي به قلبه، واشتدّ ظهره، وثبت جَنانه، وأقام بمنزلته، وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام، فاتّصل بالملك الأشرف وصار من جُنده.

فلمّا عبر الفرنج إلى أرض دِمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المجاورة لدِمياط، وقَطعوا الطريق، وأفسدوا، وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشدّ

(١) في الأوربية: «وكانوا».

على المسلمين من الفرنج، وكان أضرّ شيء على أهل دِمياط أنّها لم يكن بها من العسكر أحدٌ لأنّ السلطان ومَن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدوّ عنها، فأتتهم هذه الحركة بغتةً، فلم يدخلها أحدٌ من العسكر، وكان ذلك من فعل ابن المشطوب، لا جَرَم لم يمهله الله، وأخذه أخذةً رابية، على ما نذكره إن شاء الله.

وأحاط الفرنج بدِمياط، وقاتلوها برّاً وبحراً، وعملوا عليهم خندقاً يمنعهم ممّن يريدهم من المسلمين، وهذه كانت عادتهم، وأداموا القتال، واشتدّ الأمر على أهلها، وتعذّرت عليهم الأقوات وغيرها، وسئموا القتال وملازمته، لأنّ الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة، ومع هذا فقد صبروا صبراً لم يُسمع بمثله، وكثُر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض، ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ستّ عشرة وستّمائة، فعجز مَن بقي من أهلها عن الحفظ لقلّتهم، وتعذُّر القوت عندهم، فسلّموا البلد إلى الفرنج، في هذا التاريخ، بالأمان، فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة، فتفرّقوا أيدي سبا[1].

ذكر مُلك المسلمين دِمياط من الفرنج

لمّا ملك الفرنج دِمياط أقاموا بها، وبثّوا سراياهم في كلّ ما جاورهم من البلاد، ينهبون ويقتلون، فجلا أهلها عنها، وشرعوا في عمارتها وتحصينها، وبالغوا في ذلك حتّى إنّها بقيت لا ترام.

وأمّا الملك الكامل فإنّه أقام بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها منهم.

ولمّا سمع الفرنج في بلادهم بفتح دِمياط على أصحابهم أقبلوا إليهم يهرعون من كلّ فجّ عميق، وأصبحت دار هجرتهم، وعاد الملك المعظّم صاحب دمشق إلى الشام فخرّب البيت المقدّس، وإنّما فعل ذلك لأنّ الناس كافّة خافوا الفرنج، وأشرف الإسلام وجميع أهله وبلاده على خطّة خسف في شرق الأرض وغربها: أقبل التتر من

---

(١) مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٥٨٥، مفرّج الكروب ٣/ ٢٥٨ ـ ٢٦١، ذيل الروضتين ١٠٩، الدر المطلوب ١٩٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١١٨، نهاية الأرب ٢٣/ ٧٨ ـ ٨١، دول الإسلام ٢/ ١١٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٦١٥هـ.) ص ١٨، ١٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٣٤، الإعلام والتبيين ٤٨، البداية والنهاية ١٣/ ٧٨، ٧٩، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٤٤، السلوك ج ١، ق ١/ ١٨٨، ١٨٩، تاريخ الخلفاء ٤٥٦، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٦٠، ٢٦١.

المشرق حتّى وصلوا إلى نواحي العراق وأذربيجان وأرّان وغيرها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى؛ وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دِمياط في الدّيار المصريّة، مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء، وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تُملك، وخافهم الناس كافّةً، وصاروا يتوقّعون البلاء صباحاً ومساء.

وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدوّ، ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[1]، والعدوّ قد أحاط بهم من كلّ جانب، ولو مكّنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها، وإنّما مُنعوا منه فثبتوا.

وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه المعظّم صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة[2] وأرمينية وغيرهما، يستنجدهما، ويحثّهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يكن فيرسلان العساكر إليه، فسار صاحب دمشق إلى[3] الأشرف بنفسه بحرّان فرآه مشغولاً عن إنجادهم بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه، وزوال الطاعة عن كثير ممّن كان يطيعه؛ ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستّمائة إن شاء الله عند وفاة الملك القاهر، صاحب الموصل، فليُطلب من هناك؛ فعذره، وعاد عنه، وبقي الأمر كذلك مع الفرنج.

فأمّا الملك الأشرف فزال الخُلف من بلاده، ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه، واستقامت له الأمور إلى سنة ثماني عشرة وستّمائة، والملك الكامل مقابل الفرنج.

فلمّا دخلت سنة ثماني عشرة وستّمائة علم بزوال مانع الملك الأشرف عن إنجاده، فأرسل يستنجده وأخاه، صاحب دمشق، فسار صاحب دمشق المعظّم إلى الأشرف يحثّه على المسير، ففعل، وسار إلى دمشق فيمَن معه من العساكر، وأمر الباقين باللّحاق به إلى دمشق وأقام بها ينتظرهم، فأشار عليه بعض أمرائه وخواصّه بإنفاذ العساكر والعَود إلى بلاده خوفاً من اختلاف يحدث بعده، فلم يقبل قولهم، وقال: قد خرجتُ للجهاد، ولا بدّ من إتمام ذلك العزم؛ فسار إلى مصر.

وكان الفرنج قد ساروا عن دِمياط في الفارس والراجل، وقصدوا الملك الكامل،

---

(١) سورة صٓ، الآية ٣.

(٢) في (ب): «ديار مصر».

(٣) في (أ): «فسار المعظم إلى».

ونزلوا مقابله، بينهما خليج من النيل يسمّى بحر أشْموم، وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين، وقد تيقّنوا هم وكلّ الناس أنّهم يملكون الديار المصريّة.

وأمّا الأشرف فإنّه سار حتّى وصل مصر، فلمّا سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجّه إليه، فلقيه، واستبشر هو وسائر المسلمين باجتماعهما، لعلّ الله يحدث بذلك نصراً وظفراً.

وأمّا الملك المعظّم، صاحب دمشق، فإنّه سار أيضاً إلى ديار مصر، وقصد دِمياط ظنّاً منه أنّ أخويْه (وعسكرَيْهما)[1] قد نازلوها، وقيل بل أُخبر في الطريق أنّ الفرنج قد توجّهوا إلى دِمياط، فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم، وأخواه من خلفهم، والله أعلم.

ولمّا اجتمع الأشرف بالكامل استقرّ الأمر بينهما على التقدّم إلى خليج من النيل يُعرف ببحر المحلّة، فتقدّموا إليه، فقاتلوا الفرنج، وازدادوا قرباً، وتقدّمت شواني المسلمين من النيل، وقاتلوا شواني الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال، وما فيها من الأموال والسلاح، ففرح المسلمون بذلك، واستبشروا، وتفاءلوا، وقويت نفوسهم، واستطالوا على عدوّهم.

هذا يجري والرسل متردّدة بينهم في تقرير قاعدة الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدّس، وعَسقلان، وطَبريّة، وصَيدا، وجَبلة، واللاذقيّة، وجميع ما فتحه صلاح الدّين من الفرنج بالسّاحل وقد تقدّم ذِكره ما عدا الكَرَك، ليُسلّموا دِمياط، فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتمّ بينهم أمر وقالوا: لا بدّ من الكَرَك.

فبينما الأمر في هذا، وهم يمتنعون، اضطّر المسلمون إلى قتالهم، وكان الفرنج لاعتدادهم بنفوسهم[2] لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدّة أيّام، ظنّاً منهم أنّ العساكر الإسلاميّة لا تقوم لهم، وأنّ القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم، يأخذون منه ما أرادوا من الميرة، لأمرٍ يريده الله تعالى بهم، فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنج، ففجّروا النيل، فركب الماءُ أكثرَ تلك الأرض، ولم يبق للفرنج جهة

---

(١) من (أ).

(٢) في الأوربية: «لاقتدارهم في نفوسهم».

يسلكون[1] منها غير جهةٍ واحدة فيها ضيق، فنصب الكامل حينئذٍ الجسور على النيل، عند أشْموم، وعبرت العساكر عليها، فملك الطريق الذي يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دِمياط، فلم يبق لهم خلاص.

واتّفق في تلك الحال أنّه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمّى مَرَمّة، وحوله عدّة حرّاقات تحميه، والجميع مملوء من الميرة والسلاح، وما يحتاجون إليه، فوقع عليها شواني المسلمين، وقاتلوهم، فظفروا بالمرمّة وبما معها من الحرّاقات وأخذوها، فلمّا رأى الفرنج ذلك سُقط في أيديهم، ورأوا أنّهم قد ضلّوا الصواب بمفارقة دِمياط في أرضٍ يجهلونها.

هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنّشاب، ويحملون على أطرافهم، فلمّا اشتدّ الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم، ومجانيقهم، وأثقالهم، وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم، لعلّهم يقدرون على العَود إلى دِمياط، فرأوا ما أمّلوه بعيداً، وحِيل بينهم وبين ما يشتهون، لكثرة الوحل والمياه حولهم، والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون.

فلمّا تيقّنوا أنّهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، وأنّ ميرتهم قد تعذّر عليهم وصولها، وأنّ المنايا قد كشّرت لهم عن أنيابها، ذلّت نفوسهم، وتكسّرت صلبانهم، وضلّ عنهم شيطانهم، فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلّموا دِمياط بغير عوض، فبينما المراسلات متردّدة إذ أقبل جمْعٌ كبير، لهم رهج شديد، وجَلَبَة عظيمة، من جهة دمياط، فظنّه المسلمون نجدةً أتت للفرنج، فاستشعروا، وإذا هو الملك المعظّم، صاحب دمشق، قد وصل إليهم، وكان قد جعل طريقه على دِمياط، لما ذكرناه، فاشتدّت ظهور المسلمين، وازداد الفرنج خذلاناً ووهناً، وتمّموا الصلح على تسليم دِمياط، واستقرّت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثماني عشرة وستّمائة، وانتقل ملوك الفرنج، وكنودهم، وقمامصتهم إلى الملك الكامل (والأشرف)[2] رهائن على تسليم دِمياط ملك عكّا، ونائب بابا صاحب رومية، وكُنْد ريش، وغيرهم، وعدّتهم عشرون ملكاً، وراسلوا قسوسهم ورُهبانهم إلى دِمياط في التّسليم، فلم يمتنع مَن

(١) في الأوربية: «يسلكوا».
(٢) من (أ).

بها، وسلّموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور، وكان يوماً مشهوداً.

ومن العجب أنّ المسلمين لمّا تسلّموها وصلت للفرنج نجدة في البحر، فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها، ولكن سبقهم المسلمون ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولم يبق بها من أهلها إلاّ آحادٌ، وتفرّقوا أيدي سبا، بعضهم سار عنها باختياره، وبعضهم مات، وبعضهم أخذه[1] الفرنج.

ولمّا دخلها المسلمون رأوها وقد حصّنها الفرنج تحصيناً عظيماً بحيث بقيت لا ترام، ولا يوصل إليها، وأعاد الله، سبحانه وتعالى، الحقّ إلى نصابه، وردّه إلى أربابه، وأعطى المسلمين ظَفَراً لم يكن في حسابهم، فإنّهم كانت غاية أمانيهم أن يسلّموا البلاد التي أُخذت منهم بالشام ليعيدوا دِمياط، فرزقهم الله إعادة دِمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كفّ عادية هذا العدوّ، (وكفاهم شرّ التتر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى)[2][3].

ذكر عدّة حوادث[4]

في هذه السنة، في المحرّم، كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونيّة وبين أهل باب الأَزَج بسبب قتل سبُع؛ وزاد الشرّ بينهم، واقتتلوا، فجُرح بينهم كثير، فحضر نائب الباب وكفّهم عن ذلك، فلم يقبلوا ذلك، وأسمعوه ما يكره، فأُرسل من الديوان أميرٌ من مماليك الخليفة، فردّ أهل كلّ محلّة إلى محلّتهم، وسكنت الفتنة.

وفيها كثُر الفأر ببلدة دُجيل من أعمال بغداد، فكان الإنسان لا يقدر [أن] يجلس

---

(١) في (أ): «اخذهم».

(٢) ما بين القوسين من (أ).

(٣) أنظر خبر ملك المسلمين دمياط في: التاريخ المنصوري ٩٢، ٩٣، وذيل الروضتين ١٢٨ ـ ١٣٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٣٦ ـ ٢٣٧، وتاريخ الزمان ٢٦١، ٢٦٢، ومفرّج الكروب ٤/ ٩٢ ـ ١٠٦، وأخبار الأيوبيين لابن العميد ١٣٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢٩، ١٣٠، والدر المطلوب ٢٠٩ ـ ٢١٥، ونهاية الأرب ٢٩/ ١١٣ ـ ١١٨، ودول الإسلام ٢/ ١٢٣، والعبر ٥/ ٧٢، ٧٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦١٨هـ.)، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤٢، ١٤٣، والإعلام والتبيين ٥٣، ٥٤، ومرآة الجنان ٤/ ٣٩، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٩٢ وفيه اشارة إلى الخبر وأنه سيُذكر فيما بعد، ولم يذكر، والسلوك ج ١، ق ١/ ٢٥٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٩، وتاريخ الأزمنة للدويهي ٢١٢.

(٤) العنوان من (أ).

إلاّ ومعه عصاً[1] يردّ الفأر عنه، وكان يرى الكثير منه ظاهراً يتبع بعضه بعضاً[2].

وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها، وأشرفت بغداد على الغرق، فركب الوزير والأمراء والأعيان كافّة، وجمعوا الخلق العظيم من العامّة وغيرهم لعمل القورج[3] حول البلد، وقلق الناس لذلك، وانزعجوا، وعاينوا الهلاك، وأعدّوا السفن لينجوا فيها، وظهر الخليفة للناس، وحثّهم على العمل؛ وكان ممّا قال لهم: لو كان يُفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلتُ، ولو دُفع بحرب لفعلتُ، ولكنّ أمر الله لا يُردّ.

ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقيّ، وغرق كثير منه، وغرق مشهد أبي حنيفة، وبعض الرُّصافة، وجامع المهديّ، وقرية الملكيّة، والكشك، وانقطعت الصلاة بجامع السلطان. وأمّا الجانب[4] الغربيّ، فتهدّم أكثر القُريّة، ونهر عيسى، والشطيات، وخربت البساتين، ومشهد باب التين، ومقبرة أحمد بن حَنبَل، والحريم الطاهريّ، وبعض باب البصرة والدّور التي على نهر عيسى، وأكثر محلّة قَطُفْتَا[5].

[الوفيات]

وفيها تُوفّي أحمد بن أبي الفضائل عبد المنعم بن أبي البركات محمّد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبي الخير[6] الميهنيّ[7]، الصوفيّ، أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد، وكان صالحاً من بيت التصوّف والصلاح[8].

---

(١) في (ب): «عصاه».

(٢) العسجد المسبوك ٢/ ٣٥٧.

(٣) القورج: نهر بين القاطول وبغداد.

(٤) في الأوربية: «جانب».

(٥) مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٥٨٣، البداية والنهاية ١٣/ ٧٥، العسجد المسبوك ٢/ ٣٥٧، ٣٥٨.

(٦) في النسخة رقم ٧٤٠ «الحبر».

(٧) في النسخة رقم ٧٤٠ «المبهي».

(٨) أنظر عن (أحمد بن أبي الفضائل) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٤هـ.) ص ١٧٩.

٦١٥
ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن (بسبب موته إلى أن استقرّت الأمور)[١]

في هذه السنة تُوفّي الملك القاهر[٢] عزّ الدّين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنْقر، صاحب الموصل، ليلة الاثنين لثلاثٍ بقين من شهر ربيع الأوّل، وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر.

وكان سبب موته أنّه أخذته حُمّى، ثمّ فارقته الغد، وبقي يومَيْن موعوكاً، ثمّ عاودته الحُمّى مع قَيْءٍ كثير، وكَرْبٍ شديد، وقَلَق متتابع، ثمّ برد بدنه، وعرق، وبقي كذلك إلى وسط الليل، ثمّ تُوفّي.

وكان كريماً، حليماً، قليل الطمع في أموال الرعيّة، كافّاً عن أذًى يوصله إليهم، مقبلاً[٣] على لذّاته كأنّما ينهبها ويبادر بها الموت؛ وكان عنده رقّة شديدة، ويُكثر ذكر الموت.

حكى لي بعض مَن كان يلازمه قال: كنّا ليلة، قبل وفاته بنصف شهر، عنده، فقال لي: قد وجدتُ ضجراً من القعود، فقم بنا نتمشّى إلى الباب العماديّ؛ قال: فقمنا، فخرج من داره نحو الباب العماديّ، فوصل التربة التي عملها لنفسه (عند داره)[٤]، فوقف عندها مفكّراً لا يتكلّم، ثمّ قال لي: والله ما نحن في شيء! أليس

---

(١) من (أ).

(٢) أنظر عن (الملك القاهر) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٥هـ.) رقم ٣٣٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في الأوربية: «مبقلاً»، وهو خطأ.

(٤) من (أ).

مصيرنا إلى هاهنا، ونُدفن تحت الأرض؟ وأطال الحديث في هذا ونحوه، ثمّ عاد إلى الدّار، فقلتُ له: ألا نمشي إلى الباب العماديّ؟ فقال: ما بقي عندي نشاط إلى هذا ولا إلى غيره؛ ودخل داره وتُوفّي بعد أيّام.

وأصيب أهل بلاده بموته، وعظُم عليهم فَقْدُه، وكان محبوباً إليهم، قريباً من قلوبهم، ففي كلّ دار لأجله رنّة وعويل؛ ولمّا حضرتْه الوفاة أوصى بالمُلك لولده الأكبر نور الدّين أرسلان شاه، وعمره حينئذ نحو عشر سنين، وجعل الوصيّ عليه والمدبّر لدولته بدر الدّين لؤلؤ، وهو الذي كان يتولّى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدّين قبله، وقد تقدّم من أخباره ما يُعرف به محلّه، وسيرد منها أيضاً ما يزيد الناظر بصيرة فيه.

فلمّا قضى نحبه قام بدر الدّين بأمر نور الدّين، وأجلسه في مملكة أبيه، وأرسل إلى الخليفة يطلب له التّقليد والتّشريف، وأرسل إلى الملوك، وأصحاب الأطراف المجاورين لهم، يطلب [منهم] تجديد العهد لنور الدّين على القاعدة التي كانت بينهم وبين أبيه، فلم يُصْبح إلاّ وقد فرغ من كلّ ما يحتاج إليه، وجلس للعزاء، وحلّف الجُند والرعايا، وضبط المملكة من التّزلزل والتغيّر مع صغر السلطان وكثرة الطامعين في المُلك، فإنّه كان معه في البلد أعمام أبيه، وكان عمّه عماد الدّين زنكي بن أرسلان شاه بولايته، وهي قلعة عَقْر الحُمَيْدِيّة، يحدّث نفسه بالمُلك، لا يشكّ في أنّ الملك يصير إليه بعد أخيه، فرقع بدر الدّين ذلك الخرق، ورتق ذلك الفتق، وتابع الإحسان والخلع على الناس كافّة، وغيّر ثياب الحِداد عنهم، فلم يخصّ بذلك شريفاً دون مشروف، ولا كبيراً دون صغير، وأحسن السيرة، وجلس لكشف ظلامات الناس، وإنصاف بعضهم من بعض.

وبعد أيّام وصل التقليد من الخليفة لنور الدّين بالولاية، ولبدر الدّين بالنظر في أمر دولته، والتشريفات لهما أيضاً، وأتتهما رُسُل الملوك بالتعزية، وبذل ما طُلب منهم من العهود، واستقرّت القواعد لهما[1].

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكّاريّة والزوزان

قد ذكرنا عند وفاة نور الدّين سنة سبعٍ وستّمائة أنّه أعطى ولده الأصغر زنكي

(١) العسجد المسبوك ٢/٣٥٩ ـ ٣٦١.

قلعتَي العَقْر وشُوش، وهما بالقرب من الموصل، فكان تارةً يكون بالموصل، وتارةً بولايته، متجنّياً لكثرة تلوّنه، وكان بقلعة العماديّة مستحفظ من مماليك جدّه عزّ الدّين مسعود بن مودود، قيل إنّه جرى له مع زنكي مراسلات في معنى تسليم العماديّة إليه، فنمى الخبر بذلك إلى بدر الدّين، فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجُند لم يمكنه الامتناع، وسلّم القلعة إلى نائب بدر الدّين كذلك، وجعل بدر الدّين في غير العماديّة من القلاع نوّاباً له.

وكان نور الدّين بن القاهر لا يزال مريضاً من جروح[1] كانت به، وغيرها من الأمراض، وكان يبقى المدّة الطويلة لا يركب، ولا يظهر للناس، فأرسل زنكي إلى مَن بالعماديّة من الجُند يقول: إنّ ابن أخي تُوفّي، ويريد بدر الدّين [أن] يملك البلاد، وأنا أحقّ بملْك آبائي وأجدادي؛ فلم يزل حتّى استدعاه[2] الجُند منها، وسلّموا[3] إليه، (ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستّمائة)[4]، وقبضوا على النائب البدريّ وعلى مَن معه.

فوصل الخبر إلى بدر الدّين ليلاً فجدّ في الأمر، ونادى في العسكر لوقته بالرحيل، فساروا مُجِدّين إلى العماديّة وبها زنكي ليحصروه فيها، فلم يطلع الصبح إلاّ وقد فرغ من تسيير العساكر، فساروا إلى العماديّة وحصروها، وكان الزمان شتاءً، والبرد شديدٌ، والثلج هناك كثير، فلم يتمكّنوا من قتال من بها، لكنّهم أقاموا يحصرونها، وقام مظفّر الدّين كُوكبري بن زين الدّين، صاحب إربل، في نصر عماد الدّين، وتجرّد لمساعدته، فراسله بدر الدّين يذكره الأيمان والعهود التي من جملتها أنّه لا يتعرّض إلى شيءٍ من أعمال الموصل، ومنها قلاع الهَكّاريّة والزوزان بأسمائها، ومتى تعرّض إليها أحد من الناس، مَن كان، منعه بنفسه وعساكره، وأعان نور الدّين وبدر الدّين على منعه، ويطالبه بالوفاء بها.

ثمّ نزل عن هذا، ورضي منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم، فلم يفعل، وأظهر معاضدة عماد الدّين زنكي، فحينئذٍ لم يمكن مكاثرة زنكي بالرجال والعساكر لقرب

---

(١) في الأوربية: «خروج».

(٢) في الأوربية: «يستدعاه».

(٣) في (ب): «وسلموها».

(٤) من (أ).

هذا الخصم من الموصل وأعمالها، إلاّ أنّ العسكر البدريّ محاصرٌ للعماديّة وبها زنكي.

ثمّ إنّ بعض الأمراء من عسكر الموصل، ممّن لا علم له بالحرب، وكان شجاعاً وهو جديد الإمارة أراد أن يُظهر شجاعته ليزداد بها تقدّماً، أشار على مَن هناك من العسكر بالتّقدّم إليها ومباشرتها بالقتال، وكانوا قد تأخّروا عنها شيئاً يسيراً لشدّة البرد والثلج، فلم يوافقوه، وقبّحوا رأيه، فتركهم ورحل متقدّماً إليهم ليلاً، فاضطرّوا إلى اتّباعه خوفاً عليه من أذى يُصيبه ومَن معه، فساروا إليه على غير تعبئة لضيق المسلك، ولأنّه أعجلهم عن ذلك، وحكم الثلج عليهم أيضاً.

فسمع زنكي ومن معه، فنزلوا، ولقوا أوائل الناس، وأهل مكّة أخبر بشعابها، فلم يثبتوا لهم، وانهزموا وعادوا إلى منزلتهم، ولم يقف العسكر عليهم، فاضطرّوا إلى العَود، فلمّا عادوا راسل زنكي باقي قلاع الهكّاريّة والزوزان، واستدعاهم إلى طاعته، فأجابوه، وسلّموا إليه، فجعل فيها الوُلاة، وتسلّمها وحكم فيها[1].

ذكر اتّفاق بدر الدين مع الملك الأشرف

لمّا رأى بدر الدّين خروج القلاع عن يده، واتّفاق مظفّر الدّين وعماد الدّين عليه، ولم ينفع معهما اللّين ولا الشدّة، وأنّهما لا يزالان يسعيان في أخذ بلاده، ويتعرّضان إلى أطرافها بالنهب والأذى، أرسل إلى الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل، وهو صاحب ديار الجزيرة كلّها، إلاّ القليل، وصاحب خِلاط وبلادها، يطلب منه الموافقة والمعاضدة، وانتمى إليه، وصار في طاعته منخرطاً في سلك موافقته، فأجابه الأشرف بالقبول لذلك والفرح به والاستبشار، وبذل له المساعدة والمعاضدة، والمحاربة دونه، واستعادة ما أُخذ من القلاع التي كانت له.

وكان الملك الأشرف حينئذٍ بحلب، نازلاً بظاهرها، لما ذكرناه من تعرّض كيكاوس، ملك بلاد الروم التي بيد المسلمين، قونيَة وغيرها، إلى أعمالها، وملكه بعض قلاعها، فأرسل إلى مظفّر الدّين يقبّح هذه الحالة، ويقول له: إنّ هذه القاعدة تقرّرت بين جميعنا بحضور رسلك، وإنّنا نكون على الناكث إلى أن يرجع الحقّ، ولا بدّ من إعادة ما أُخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التي استقرّت بيننا، فإن

(١) العسجد المسبوك ٢/٣٦١، ٣٦٢.

امتنعتَ، وأصررتَ على معاضدة زنكي ونُصرته، فأنا أجيء بنفسي وعساكري، وأقصد بلادك وغيرها، وأستردّ ما أخذتموه وأعيده إلى أصحابه، والمصلحة أنّك توافق، وتعود إلى الحقّ، لنجعل شغلنا جمع العساكر، وقصد الدّيار المصريّة، وإجلاء الفرنج عنها قبل أن يعظُم خطْبهم ويستطير شرّهم[١].

فلم تحصل الإجابة منه إلى شيء من ذلك؛ وكان ناصر الدين محمود، صاحب الحصن وآمِد، قد امتنع عن موافقة الأشرف، وقصد بعض بلاده ونهبها، وكذلك صاحب ماردين، واتّفقا مع مظفّر الدّين، فلمّا رأى الأشرف ذلك جهّز عسكراً وسيّره إلى نصيبين نجدة لبدر الدّين إن احتاج إليهم[٢].

ذكر انهزام عماد الدّين زنكي من العسكر البدريّ

لمّا عاد العسكر البدريّ من حصار العماديّة وبها زنكي، كما ذكرناه، قويت نفسه، وفارقها، وعاد إلى قلعة العَقْر التي له ليتسلّط على أعمال الموصِل بالصحراء، فإنّ بلد الجبل كان قد فرغ منه، وأمدّه مظفّر الدّين بطائفةٍ كثيرة من العسكر.

فلمّا اتصل الخبر ببدر الدّين سيّر طائفة من عسكره إلى أطراف بلد الموصِل يحمونها، فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل، ثمّ إنّهم اتّفقوا بينهم على المسير إلى زنكي، وهو عند العَقر في عسكره، ومحاربته، ففعلوا ذلك، ولم يأخذوا أمر بدر الدّين بل أعلموه بمسيرهم جريدةً ليس معهم إلاّ سلاحهم، ودوابّ يقاتلون عليها، فساروا ليلتهم، وصبّحوا زنكي بُكرة الأحد لأربعٍ بقين من المحرّم من سنة ستّ عشرة وستّمائة، فالتقوا واقتتلوا تحت العَقْر، وعظُم الخطْب بينهم، فأنزل الله نصره على العسكر البدريّ، فانهزم عماد الدّين وعسكره، وسار إلى إربل منهزماً، وعاد العسكر البدريّ إلى منزلته التي كان بها، وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك الأشرف في تجديد الصلح، فاصطلحوا، وتحالفوا بحضور الرسل[٣].

ذكر وفاة نور الدّين صاحب الموصل ومُلك أخيه

ولمّا تقرّر الصلح تُوفّي نور الدّين أرسلان شاه[٤] ابن الملك القاهر، صاحب

---

(١) في (أ): «شررهم».

(٢) الخبر ينفرد به ابن الأثير.

(٣) الخبر ينفرد به ابن الأثير.

(٤) أنظر عن (نور الدين أرسلان شاه) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٥هـ.) ص٢٣٥.

الموصل، وكان لا يزال مريضاً بعدّة أمراض، فرتّب بدر الدّين في المُلك بعده أخاه ناصر الدّين محموداً وله من العمر نحو ثلاث سنين، ولم يكن للقاهر ولدٌ غيره، وحلف له الجُند، وركّبه، فطابت نفوس الناس، لأنّ نور الدّين كان لا يقدر على الركوب لمرضه، فلمّا ركّبوا هذا علموا أنّ لهم سلطاناً من البيت الأتابكيّ، فاستقرّوا واطمأنّوا، وسكن كثير من الشغب بسببه.

ذكر انهزام بدر الدّين من مظفّر الدّين

لمّا تُوفّي نور الدّين، وملك أخوه ناصر الدّين، تجدّد لمظفّر الدّين ولِعماد الدّين طمع لصِغر سنّ ناصر الدّين، فجمعا الرجال، وتجهّزا للحركة، فظهر ذلك، وقصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد.

وكان بدر الدّين قد سيّر ولده الأكبر في جمع صالح من العسكر إلى الملك الأشرف بحلب، نجدةً له بسبب اجتماع الفرنج بمصر، وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التي بساحل الشام ينهبها، ويخرّبها، ليعود بعض من بدِمياط إلى بلاده، فيخفّ الأمر على الملك الكامل، صاحب مصر؛ فلمّا رأى بدر الدّين تحرُّك مظفّر الدّين وعماد الدّين، وأنّ بعض عسكره بالشام، أرسل إلى عسكر الملك الأشرف الذي بنَصِيبين يستدعيهم ليعتضد بهم، وكان المقدّم عليهم مملوك الأشرف، اسمه أيبَك، فساروا إلى الموصل رابع رجب سنة ستّ عشرة.

فلمّا رآهم بدر الدّين استقلّهم لأنّهم كانوا أقلّ من العسكر الذي له بالشام، أو مثلهم، فألحّ أيبَك على عبور دجلة وقصد بلاد إربل، فمنعه بدر الدّين من ذلك، وأمره بالاستراحة، فنزل بظاهر الموصل أيّاماً، وأصرّ على عبور دجلة، فعبرها بدر الدّين موافقة له، ونزلوا على فرسخ من الموصل، شرقيّ دجلة، فلمّا سمع مظفّر الدّين ذلك جمع عسكره وسار إليهم. ومعه زنكي، فعبر الزّاب وسبق خبره، فسمع به بدر الدّين فعبّأ أصحابه، وجعل أيبَك في الجالشية، ومعه شجعان أصحابه، وأكثر معه منهم، بحيث إنّه لم يبق معه إلاّ اليسير، وجعل في ميسرته أميراً كبيراً وطلب الانتقال عنها إلى الميمنة، فنقله.

فلمّا كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الأمير الطلب بالانتقال من الميمنة إلى

الميسرة، والخصم بالقرب منهم، فمنعه بدر الدّين، وقال: متى انتقلتَ أنت ومَن معك في هذا الليل، ربّما ظنّه الناس هزيمة فلا يقف أحد؛ فأقام بمكانه، وهو في جَمْع كبير من العسكر، فلمّا انتصف الليل سار أيبَك، فأمره بدر الدّين بالمقام إلى الصبح لَقرب العدوّ منهم، فلم يقبل لجهله بالحرب، فاضطرّ الناس لاتّباعه، فتقطّعوا في الليل والظُّلمة، والتقوا هم والخصم في العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل، فأمّا عزّ الدّين فإنّه تيامن والتحق بالميمنة، وحمل في اطّلابه هو والميمنة على ميسرة مظفّر الدّين، فهزمها وبها زنكي.

وكان الأمير الذي انتقل إلى الميمنة قد أبعد عنها، فلم يقاتل، فلمّا رأى أيبك قد هزم الميسرة تبِعه والتحق به وانهزمت ميسرة بدر الدّين فبقي هو في النّفر الذين معه، وتقدّم إليه مظفّر الدّين فيمن معه في القلب لم يتفرّقوا، فلم يمكنه الوقوف، فعاد إلى الموصل، وعبر دجلة إلى القلعة، ونزل منها إلى البلد؛ فلمّا رآه الناس فرحوا به، وساروا معه، وقصد باب الجسر، والعدوّ بإزائه، بينهما دجلة، فنزل مظفّر الدّين فيمن سلم معه من عسكره وراء تلّ حصن نِينَوى، فأقام ثلاثة أيّام.

فلمّا رأى اجتماع العسكر البدريّ بالموصل، وأنّهم لم يُفقد منهم إلاّ اليسير، وبلغه الخبر أنّ بدر الدّين يريد العبور إليه ليلاً بالفارس والراجل، على الجسور وفي السفن، ويكبسه، رحل[1] ليلاً من غير أن يضرب كُوساً أو بوقاً، وعادوا نحو إربل، فلمّا عبروا الزّاب نزلوا، ثمّ جاءت الرسل وسعوا في الصلح، فاصطلحوا على أنّ كلّ من بيده شيء هو له، وتقرّرت العهود والأيمان على ذلك.

ذكر مُلك عماد الدين قلعة كَوَاشَى ومُلك بدر الدين تلّ يَعْفَرَ ومُلك الملك الأشرف سِنجار

كَوَاشَى هذه من أحصن قلاع الموصِل وأعلاها وأمنعها، وكان الجُند الذين بها، لمّا رأوا ما فعل أهل العِماديّة وغيرها من التّسليم إلى زنكي، وأنّهم قد تحكّموا في القلاع، لا يقدر أحد على الحكم عليهم، أحبّوا أن يكونوا كذلك، فأخرجوا نوّاب بدر الدّين عنهم، وامتنعوا بها، وكانت رهائنهم بالموصل، وهم يُظهرون طاعة بدر الدّين، ويبطنون المخالفة، فتردّدت الرسل في عَودهم إلى الطاعة، فلم يفعلوا، وراسلوا زنكي

(١) في الأوربية: «فرحل».

في المجيء إليهم، فسار إليهم وتسلّم القلعة، وأقام عندهم، فرُوسِلَ مظفّر الدّين يذكّر بالأيمان القريبة العهد، ويُطلب منه إعادة كَوَاشَى، فلم تقع الإجابة إلى ذلك، فأرسل حينئذٍ بدر الدّين إلى الملك الأشرف، وهو بحلب، يستنجده، فسار وعبر الفرات[1] إلى حَرّان، واختلفت عليه الأمور من عدّة جهات منعته من سرعة السير.

وسبب هذا الاختلاف أنّ مظفّر الدّين كان يراسل الملوك أصحاب الأطراف ليستميلهم، ويحسّن لهم الخروج على الأشرف، ويخوّفهم منه، إن خلا وجهه، فأجابه إلى ذلك عزّ الدّين كيكاوس بن كَيخَسرو بن قلج أرسلان، صاحب بلاد الروم، [وصاحب آمِد]، وحصن كيفا، وصاحب ماردين، واتّفقوا كلّهم على طاعة كيكاوس، وخطبوا له في بلادهم، ونحن[2] نذكر ما كان بينه وبين الأشرف عند مَنبج لمّا قصد بلاد حلب، فهو موغر الصدر عليه.

فاتّفق أنّ كيكاوس مات في ذلك الوقت، وكُفي الأشرف وبدر الدّين شرّه، ولا جدّ إلاّ ما أقعص عنك الرجال، وكان مظفّر الدّين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف، واستمالهم، فأجابوه، منهم: أحمد بن عليّ بن المشطوب، الذي ذكرنا أنّه فعل على دِمياط ما فعل، وهو أكبر أمير معه، ووافقه غيره، منهم: عزّ الدّين محمّد بن بدر الحميديّ وغيرهما، وفارقوا الأشرف، ونزلوا بدُنَيسِر، تحت ماردين، ليجتمعوا مع صاحب آمِد، ويمنعوا الأشرف من العبور إلى الموصِل لمساعدة بدر الدّين.

فلمّا اجتمعوا هناك عاد صاحب آمِد إلى موافقة الأشرف، وفارقهم، واستقرّ الصلح بينهما، وسلّم إليه الأشرف مدينة حاني، وجبل جُور، وضمن له أخْذ دَارَا وتسليمها إليه، فلمّا فارقهم صاحب آمِد انحلّ أمرهم، فاضطرّ بعض أولئك الأمراء إلى العَود إلى طاعة الأشرف، وبقي ابن المشطوب وحده، فسار إلى نَصِيبين ليسير إلى إربل، فخرج إليه شِحنة نَصِيبين فيمن عنده من الجُند، فاقتتلوا، فانهزم ابن المشطوب، وتفرّق مَن معه من الجمع، ومضى منهزماً، فاجتاز بطرف بلد سِنجار، فسيّر إليه صاحبها فرُّوخ شاه بن زنكي بن مودود بن زنكي عسكراً فهزموه وأخذوه أسيراً وحملوه إلى سِنجار، وكان صاحبها موافقاً للأشرف وبدر الدّين.

---

(١) في الأوربية: «الفراة».
(٢) في (أ): «وقد».

فلمّا صار عنده ابن المشطوب حسّن عنده مخالفة الأشرف، فأجابه إلى ذلك وأطلقه، فاجتمع معه مَن يريد الفساد، فقصدوا البَقْعا من أعمال الموصِل، ونهبوا فيها عدّة قرى، وعادوا إلى سِنجار، ثمّ ساروا وهو معهم إلى تلّ يَعْفَر، وهي لصاحب سِنجار، ليقصدوا بلد الموصِل وينهبوا في تلك الناحية، فلمّا سمع بدر الدّين بذلك سيّر إليه عسكراً، فقاتلوهم، فمضى منهزماً، وصعِد إلى تَلّ يَعْفَر، واحتمى بها منهم، ونازلوه وحصروه فيها، فسار بدر الدّين من الموصل إليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الأوّل سنة سبع عشرة وستّمائة، وجدّ في حصره، وزحف إليها مرّة بعد أخرى، فملكها سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة، وأخذ ابن المشطوب معه إلى الموصل فسجنه بها، ثمّ أخذه منه الأشرف، فسجنه بحَرّان إلى أن تُوفّي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستّمائة، ولقّاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدِمياط[1].

وأمّا الملك الأشرف، فإنّه لمّا أطاعه صاحب الحصن وآمِد، وتفرّق الأمراء [عنه] كما ذكرناه، رحل من حَرّان إلى دُنَيسِر، فنزل عليها، واستولى على بلد ماردين، وشحّن عليه، وأقطعه، ومنع الميرة عن ماردين، وحضر معه صاحب[2] آمِد، وتردّدت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح، فاصطلحوا على أن يأخذ الأشرف رأس عين، وكان هو قد أقطعها لصاحب ماردين، ويأخذ منه أيضاً ثلاثين ألف دينار، ويأخذ منه صاحب آمِد المُوَزَّرَ، من بلد [شبختان][3].

فلمّا تمّ الصلح سار الأشرف من دُنَيسِر إلى نَصِيبين (يريد الموصِل)[4]، فبينما هو في الطريق لقيه رُسُل صاحب سِنجار يبذل تسليمها إليه، ويطلب العوض عنها مدينة الرَّقّة.

وكان السبَب في ذلك أخذ تلّ يَعْفَر منه، فانخلع قلبه، وانضاف إلى ذلك أنّ ثقاته ونُصحاءه خانوه، وزادوه رُعْباً وخوفاً، لأنّه تهدّدهم، فتغدّوا به قبل أن يتعشّى بهم، ولأنّه قطع رحِمه، وقتل أخاه الذي ملك سِنجَار بعد أبيه[5]؛ (قتله كما نذكره إن

---

(١) أنظر عن (ابن المشطوب) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٩هـ.) ص٤٤٢.
(٢) في (أ): «وحضره صاحب».
(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «سحتان».
(٤) من (أ).
(٥) في (أ): «أخيه».

شاء الله)[1]، وملكها، فلقّاه الله سوء فعله، ولم يمتّعه بها، فلمّا تيقّن رحيل الأشرف تحيّر في أمره، فأرسل في التسليم إليه، فأجابه الأشرف إلى العوض، وسلّم إليه الرَّقّة، وتسلّم سِنجَار مُستهلّ جُمادى الأولى سنة سبع عشرة وستّمائة، وفارقها صاحبها وإخوته بأهليهم وأموالهم، وكان هذا آخر ملوك البيت الأتابكيّ بسِنجار، فسبحان الحيّ الدّائم الذي ليس لملكه آخِر. وكان مدّة مُلكهم لها أربعاً وتسعين سنة، وهذا دأب الدّنيا بأبنائها، فتعساً[2] لها من دارٍ ما أغدرها بأهلها!

ذكر وصول الأشرف إلى الموصل والصلح مع مظفّر الدّين

لمّا ملك الملك الأشرف سِنجار سار يريد الموصِل ليجتاز منها، فقدّم بين يديه عساكره، فكان يصل كلّ يوم منهم جمعٌ كثير، ثمّ وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جُمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان يوم وصوله مشهوداً، وأتاه رسل الخليفة ومظفّر الدّين في الصلح، وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدّين، ما عدا قلعة العِماديّة فإنّها تبقى بيد زنكي، وإنّ المصلحة قبول هذا لتزول الفِتن، ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج.

وطال الحديث في ذلك نحو شَهْرين، ثمّ رحل الأشرف يريد مظفّر الدّين صاحب إرْبل، فوصل إلى قرية السّلامِيّة، بالقرب من نهر الزّاب، وكان مظفّر الدّين نازلاً عليه من جانب إربل، فأعاد الرسل، وكان العسكر قد طال بيكاره، والناس قد ضجروا، وناصر الدّين صاحب آمِد يميل إلى مظفّر الدّين، فأشار بالإجابة إلى ما بذل، وأعانه عليه غيره، فوقعت الإجابة إليه، واصطلحوا على ذلك، وجُعل لتسليمها أجلٌ، وحُمل زنكي إلى الملك الأشرف (يكون عنده)[3] رهينة إلى حين تسليم القلاع.

وسُلّمت قلعة العَقْر، وقلعة شوش أيضاً، وهما لزنكي، إلى نوّاب الأشرف، رهناً على تسليم ما استقرّ من القِلاع، فإذا سُلّمت أطلق زنكي، وأعيد عليه قَلعة العَقْر، وقلعة شوش، وحلفوا على هذا، وسلّم الأشرف زنكي القلعتَيْن وعاد إلى سِنجار، وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستّمائة، فأرسلوا إلى القلاع لتُسلّم إلى نوّاب بدر الدّين، فلم يسلّم إليه غير قلعة جلّ صورا،

---

(١) من (أ).

(٢) في الأوربية: «فتسعاً»، وهو خطأ.

(٣) من (ب).

من أعمال الهكّاريّة، وأمّا باقي القلاع فإنّ جُندها أظهروا الامتناع من ذلك، ومضى الأجل ولم يسلّم غير جلّ صورا.

ولزم عماد الدّين زنكي لشهاب الدّين غازي ابن الملك العادل، وخدمه، وتقرّب إليه، فاستعطف له[1] أخاه الملك الأشرف، فمال إليه وأطلقه، وأزال نوّابه من قلعة العَقْر وقلعة شوش، وسلّمهما إليه.

وبلغ بدرَ الدّين عن الملك الأشرف مَيلٌ إلى قلعة تلّ يَعْفَر، وإنّها كانت لسِنجار من قديم الزمان وحديثه، وطال الحديث في ذلك[2]، فسلّمها إليه بدر الدّين.

ذكر عود قلاع الهكّاريّة والزوزان إلى بدر الدين

لمّا ملك زنكي قلاع الهكّارية والزوزان لم يفعل مع أهلها ما ظنّوه من الإحسان والإنعام، بل فعل ضدّه، وضيّق عليهم، وكان يبلغهم أفعال بدر الدّين مع جُنده ورعاياه، وإحسانه إليهم، وبذله الأموال لهم، (وكانوا يريدون العَود إليه، ويمنعهم الخوف منه لِما أسلفوه من ذلك)[3]، فلمّا كان الآن أُعلنوا[4] بما فعل معهم، فأرسلوا إلى بدر الدّين في المحرّم سنة ثماني عشرة وستّمائة في التّسليم إليه، وطلبوا منه اليمين، والعفو عنهم، وذكروا شيئاً من إقطاع يكون لهم، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه في ذلك، فلم يأذن له.

وعاد زنكي من عند الأشرف، فجمع جموعاً، وحصر قلعة العِماديّة، فلم يبلغ منهم غرضاً، وأعادوا مراسلة بدر الدّين في التسليم إليه، فكتب إلى الملك الأشرف في المعنى، وبذل له قلعة جُدَيدة نَصِيبين، وولاية بين النهرَيْن ليأذَن له في أخذها، فأذِن له، فأرسل إليها كلّها النوّاب وتسلّموها، وأحسن إلى أهلها، ورحل زنكي عنها، ووفى له بدر الدّين بما بذله لهم.

فلمّا سمع جُند باقي القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الإحسان والزيادة، رغبوا كلّهم في التسليم إليه، فسيّر إليهم النّوّاب، واتّفقت كلمة أهلها على طاعته والانقياد إليه؛ والعجب أنّ العساكر اجتمعت من الشام، والجزيرة، وديار بكر، وخِلاط،

---

(١) في الأوربية: «الله».

(٢) في (أ): «في ذلك وقصر».

(٣) من (ب).

(٤) في الأوربية: «علبوا».

وغيرها، في استعادة هذه القلاع، فلم يقدروا على ذلك، فلمّا تفرّقوا حضر أهلها وسألوا أن تؤخذ منهم، فعادت صفواً عفواً بغير منّة، ولقد أحسن من قال:

لا سَهلَ إلاّ ما جعلتَ سَهلا وإنْ تَشأ تَجعَلْ بحَزْنٍ وَحْلا

فتبارك الله الفعّال لما يريد، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، وهو على كلّ شيء قدير.

ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للأشرف وانهزام كِيكَاوُس

في هذه السنة سار عزّ الدين كِيكَاوُس بن كَيخَسْرو ملك الروم إلى ولاية حلب، قصداً للتغلّب عليها، ومعه الأفضل بن صلاح الدّين يوسف.

وسبب ذلك أنه كان بحلب رجلان فيهما شرّ كثير وسعاية بالناس، فكانا ينقلان إلى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدّين عن رعيّته، فأوغرا صدره[1]، فلقي الناس منهما شدّة؛ فلمّا تُوفّي الظاهر ووليَ الأمر شهاب الدّين طُغرُل[2] أبعدهما وغيرهما ممّن يفعل مثل فعلهما، وسدّ هذا الباب على فاعله، ولم يطرّق إليه أحداً من أهله؛ فلمّا رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما، وثار بهما الناس، وآذَوْهما، وتهدّدوهما لما كانا أسلفاه من الشرّ، فخافا، ففارقا حلب، وقصدا كِيكَاوُس فأطمعاه[3] فيها، وقرّرا في نفسه أنّه متى قصدها لا تثبت بين يديه، وأنّه يملكها، ويهون عليه مُلك ما بعدها.

فلمّا عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من أصحابه، وقالوا له: لا يتمّ لك هذا إلاّ بأن يكون معك أحدٌ من بيت أيّوب ليسهل على أهل البلاد وجُندها الانقياد إليه؛ وهذا الأفضل بن صلاح الدّين هو في طاعتك، والمصلحة أنّك تستصحبه معك، وتقرّر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد، فمتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد.

فأحضر الأفضل من سُمَيساط إليه، وأكرمه، وحمل إليه شيئاً كثيراً من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك، واستقرّت القواعد بينهما أن يكون ما يفتحه من حلب

---

(١) في (أ): «صدورهم».
(٢) في (أ): «طغرل الخادم».
(٣) في الأوربية: «فأطعماه».

وأعمالها للأفضل، وهو في طاعة كيكاوس، والخطبة له في ذلك أجمع، ثمّ يقصدون ديار الجزيرة، فما يفتحونه ممّا بيد الملك الأشرف مثل: حرّان والرُّها من البلاد الجزريّة، تكون لكِيكاوُس. وجرت الأيمان على ذلك، وجمعوا العساكر وساروا، فملكوا قلعة رَعْبَانَ، فتسلّمها الأفضل، فمال الناس حينئذ إليهما.

ثمّ سارا إلى قلعة تلّ باشِر، وفيها صاحبها[1] ولد بدر الدّين دلدرم الياروقيّ، فحصروه، وضيّقوا عليه، وملكوها منه، فأخذها كِيكَاوس لنفسه، ولم يسلّمها إلى الأفضل، فاستشعر الأفضل من ذلك، وقال: هذا أوّل الغدر؛ وخاف أنّه إن ملك حلب يفعل به هكذا، فلا يحصل إلاّ أن يكون قد قلع بيته لغيره، ففترت نيّته، وأعرض عمّا كان يفعله؛ وكذلك أيضاً أهل البلاد، فكانوا يظنّون أنّ الأفضل يملكها، فيسهل عليهم الأمر، فلمّا رأوا ضدّ ذلك وقفوا.

وأمّا شهاب الدّين أتابك ولد الظاهر، صاحب حلب، فإنّه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها، ولا يفارقها البتّة؛ وهذه كانت عادته مذ مات الظاهر، خوفاً من ثائر يثور به، فلمّا حدث هذا الأمر خاف أن يحصروه، وربّما سلّم أهل البلد والجُند المدينة إلى الأفضل لميلهم إليه؛ فأرسل إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل، صاحب الدّيار الجزريّة وخِلاط وغيرها، يستدعيه إليه لتكون طاعتهم له، ويخطبون له، ويجعل السكّة باسمه، ويأخذ من أعمال حلب ما اختار، ولأنّ ولد الظاهر هو ابن أخته، فأجاب إلى ذلك، وسار إليهم في عساكره التي عنده، وأرسل إلى الباقين يطلبهم إليه، وسرّه ذلك للمصلحة العامّة لجميعهم، وأحضر إليه العرب من طيء وغيرهم، ونزل بظاهر حلب.

ولمّا أخذ كِيكَاوس تلّ باشر كان الأفضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العساكر بها، وقبل أن يحتاطوا ويتجهّزوا، فعاد عن ذلك، وصار يقول: الرأي أنّنا نقصد مَنبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء، قصداً للتمادي ومرور الزمان في لا شيء؛ فتوجّهوا من تلّ باشر إلى جهة مَنبج، وتقدّم الأشرف نحوهم، وسارت العرب في مقدّمته؛ وكان طائفة من عسكر كِيكَاوس، نحو ألف فارس، قد سبقت مقدّمته له، فالتقوا هم والعرب ومَن معهم من العسكر الأشرفيّ، فاقتتلوا، فانهزم عسكر كيكاوس، وعادوا إليه منهزمين، وأكثر العرب الأسر منهم والنهب لجودة خيلهم ودَبَر خيل الروم.

---

(١) في (ب): «صاحبها فتح الدين».

فلمّا وصل إليه أصحابه منهزمين لم يثبت، بل ولّى على أعقابه يطوي المراحل إلى بلاده خائفاً يترقّب، فلمّا وصل إلى أطرافها[١] أقام.

وإنّما فعل هذا لأنّه صبيّ غِرّ لا معرفة له بالحرب، وإلاّ، فالعساكر ما برحت تقع مقدّماتها بعضها على بعض، فسار حينئذٍ الأشرف، فملك رَعْبَان، وحصر[٢] تلّ باشر، وبها جمْعٌ من عسكر كِيكاوس، فقاتلوه حتّى غُلبوا، فأُخذت القلعة منهم، وأطلقهم الأشرف، فلمّا وصلوا إلى كيكاوس جعلهم في دارٍ وأحرقها عليهم، فهلكوا، فعظُم ذلك على الناس كافّة، واستقبحوه، واستضعفوه، لا جَرَم لم يمهله الله تعالى لعدم الرحمة في قلبه، ومات عقيب هذه الحادثة[٣].

وسلّم الأشرف تلّ باشر وغيرها من بلد حلب إلى شهاب الدّين أتابك، صاحب حلب، وكان عازماً على اتّباع كِيكاوس، ودخول[٤] بلاده، فأتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل، فاقتضت المصلحة العود إلى حلب، لأنّ الفرنج بديار مصر، ومثل ذلك السلطان العظيم إذا تُوفّي ربّما جرى خلل في البلاد لا تُعرف العاقبة فيه، فعاد إليها، وكُفي كلّ منهما أذى صاحبه.

ذكر وفاة الملك العادل ومُلك أولاده بعده

تُوفّي[٥] الملك العادل أبو بكر بن أيّوب سابع جُمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستّمائة؛ وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند مُلك عمّه أسد الدّين شيركوه ديار مصر سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة؛ ولمّا ملك أخوه صلاح الدّين يوسف بن أيّوب ديار مصر، بعد عمّه، وسار إلى الشام استخلفه[٦] بمصر ثقة به، واعتماداً عليه، وعلماً بما هو عليه من توفرّ العقل وحُسن السيرة.

فلمّا تُوفّي أخوه صلاح الدّين ملك دمشق وديار مصر، كما ذكرناه، وبقي مالكاً للبلاد إلى الآن، فلمّا ظهر الفرنج، كما ذكرناه سنة أربع عشرة وستّمائة، قصد هو مَرْج

---

(١) في (أ): «طرفها».

(٢) في (أ): «وقصد».

(٣) أنظر عن وفاة كيكاوس في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٥هـ.) رقم ٣٢١ (ووفيات ٦١٦هـ.) رقم ٤٠٠، وفيه مصادر ترجمته، وسيذكرها المؤلف ابن الأثير في السنة التالية ٦١٦هـ.

(٤) في الأوربية: «ويدخل».

(٥) في إحدى النُسخ: «لما توفي».

(٦) في الأوربية: «يستخلفه».

الصُّفَّر، فلمّا سار الفرنج إلى ديار مصر انتقل هو إلى عالقين، فأقام به، ومرض، وتُوفِّي، وحُمل إلى دمشق، فدُفن بالتربة التي له بها.

وكان عاقلاً، ذا رأيٍ سديد، ومَكْرٍ شديد، وخديعة، صبوراً، حليماً، ذا أناة، يسمع ما يكره، ويُغضي عليه حتّى كأنه لم يسمعه، كثير الحرج[١] وقت الحاجة لا يقف في شيء وإذا لم تكن حاجة فلا.

وكان عُمره خمساً وسبعين سنة وشهوراً لأنّ مولده كان في المحرّم من سنة أربعين وخمسمائة، وملك دمشق في شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة [من الأفضل ابن أخيه، وملك مصر في ربيع الآخر من سنة ستّ وتسعين][٢] منه أيضاً.

ومن أعجب ما رأيتُ من منافاة الطوالع أنّه لم يملك الأفضل مملكة قطّ إلاّ وأخذها منه عمّه العادل، فأوّل ذلك أنّ صلاح الدّين أقطع ابنه الأفضل حَرّان، والرُّها، وميّافارقين، سنة ستٍّ وثمانين، بعد وفاة تقيّ الدّين، فسار إليها، فلمّا وصل إلى حلب أرسل أبوه الملكَ العادل بعده، فردّه من حلب، وأخذ هذه البلاد منه.

ثمّ ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق فأخذها منه؛ ثمّ ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضاً منه، ثمّ ملك صَرْخَد فأخذها منه.

وأعجب من هذا أنّني رأيتُ بالبيت المقدّس سارية من الرخام مُلقاةً في بيعة صِهْيون، ليس مثلها، فقال القسّ الذي بالبيعة: هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها إلى دمشق، ثمّ إنّ العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل؛ طلبها منه فأخذها. وهذا غاية[٣]، وهو من أعجب ما يُحكى.

وكان العادل قد قسّم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الملك الكامل محمّداً، وبدمشق، والقدس، وطبَريّة، والأردن والكَرَك وغيرها من الحصون المجاورة لها، ابنه المعظّم عيسى؛ وجعل بعض ديار الجزيرة وميّافارقين وخِلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى، وأعطى الرُّها لولده شهاب الدّين غازي، وأعطى قلعة جَعْبَر لولده الحافظ أرسلان شاه؛ فلما تُوفّي ثبت كلّ منهم في المملكة التي أعطاه[٤] أبوه،

---

(١) في (أ): «الخرج».

(٢) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

(٣) في (ب): «غاية في الطوالع».

(٤) في (ب): «أعطاها له».

واتّفقوا اتّفاقاً حسناً لم يجرِ بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كلّ منهم يثق بالآخر[1] بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه، فلا جَرَم زاد مُلكهم، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم.

ولَعَمْري إنّهم نِعم الملوك، فيهم الحلم، والجهاد، والذّبّ عن الإسلام، وفي نوبة دِمياط كفاية؛ وأمّا الملك الأشرف[2] فليس للمال عنده محلّ، بل يُمطره مطراً كثيراً لعِفّته عن أموال الرعيّة، دائم الإحسان، لا يسمع سعاية ساعٍ.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ذي القعدة، رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دِمياط، لأنّه بلغه أنّ جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تمليك أخيه الفائز عوضه، فخافهم، ففارق منزلته، فانتقل الفرنج إليها، وحصروا حينئذٍ دِمياط برّاً وبحراً، وتمكّنوا من ذلك، وقد تقدّم مُستقصًى سنة أربع عشرة وستّمائة[3].

[الوفيات]

وفيها[4]، في المحرّم، تُوفّي شرف الدين محمّد بن علوان بن مهاجر، الفقيه الشافعيّ، وكان مدرّساً في عدّة مدارس بالموصل، وكان صالحاً كثير الخير والدّين، سليم القلب، رحمه الله.

وفيها تُوفّي عزّ الدّين نجاح الشرابيّ خاصّ الخليفة، وأقرب الناس إليه، وكان الحاكم في دولته، كثير العدل والإحسان والمعروف والعصبيّة للناس؛ وأمّا عقله وتدبيره فإليه كانت النهاية وبه يُضرب المثل.

وفيها تُوفّي عليُّ بن نصر بن هرون أبو الحسن الحلّيّ، النَّحْويّ، الملقّب بالحُجّة، قرأ على ابن الخشّاب وغيره.

---

(١) في الأوربية: «إلى الآخر».

(٢) في (أ): «الأشرف فإنه كريم».

(٣) نهاية الأرب ٢٩/٨٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٦١٥هـ.) ص ١٩.

(٤) من (أ).

٦١٦
ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

ذكر وفاة كِيكَاوُس ومُلك كَيْقُبَاذ أخيه

في هذه السنة تُوفّي الملك الغالب عزّ الدّين كِيكَاوُس[١] بن كَيْخَسْرُو بن قلج أرسلان، صاحب قونية، وأقصَرا ومَلَطية وما بينهما من بلد الروم، وكان قد جمع عساكره، وحشد، وسار إلى مَلَطية على قصد بلاد الملك الأشرف لقاعدة استقرّت بينه وبين ناصر الدّين، صاحب آمد، ومظفّر الدّين، صاحب إربل، وكانوا قد خطبوا له، وضربوا اسمه على السكّة في بلادهم، واتّفقوا على الملك الأشرف وبدر الدّين بالموصل.

فسار كِيكَاوس إلى مَلَطية ليمنع الملك الأشرف بها[٢] عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدّين، لعلّ مظفّر الدّين يبلغ من الموصل غرضاً، وكان قد علق به السلّ، فلمّا اشتدّ مرضه عاد عنها، فتُوفّي وملك بعده أخوه كَيْقُباذُ، وكان محبوساً، قد حبسه أخوه كِيكَاوس لمّا أخذ البلاد منه، وأشار عليه بعض أصحابه بقتله، فلم يفعل، فلمّا تُوفّي لم يخلّف ولداً يصلُح للمُلك لصِغَرهم، فأخرج الجُند كَيْقُباذَ وملّكوه. ومن ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾[٣].

وقيل بل أرسل كِيكَاوس لمّا اشتدّ مرضه، فأحضره عنده من السجن، ووصّى له بالملك وحلّف الناس له؛ فلمّا ملك خالفه عمّه صاحب أرزَن الروم، وخاف أيضاً من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف وصالحه، وتعاهدا على المصافاة والتّعاضُد، وتصاهرا، وكُفي الأشرف شرّ تلك الجهة، وتفرّغ باله لإصلاح ما بين

---

(١) ذكر الحافظ الذهبي ترجمته مرتين: في سنة ٦١٥هـ، وسنة ٦١٦هـ. رقم ٣٢١ و٤٠٠.

(٢) في الأوربية: «به».

(٣) سورة الحج، الآية ٦٠.

يديه، ولقد صدق القائل: لا جدّ إلاّ ما أقعص عنك الرجال، وكأنّه بقوله أراد: وجَدُّكَ طَعّانٌ[1] بغَيرِ سِنان.

وهذا ثمرة حُسن النيّة، فإنّه حَسن النيّة لرعيّته وأصحابه، كافّ عن أذًى يتطرّق إليهم منه، غير قاصد إلى البلاد المجاورة لبلاده بأذًى ومُلكٍ مع ضعف أصحابها وقوّته، لا جَرَم تأتيه البلاد صفواً عفواً[2].

ذكر موت صاحب سنجار ومُلك ابنه
ثمّ قتل ابنه ومُلك أخيه

وفي هذه السنة، ثامن صفر، تُوفّي قُطْب الدّين محمّد بن زنكي[3] بن مودود بن زنكي، صاحب سِنجار، وكان كريماً، حسن السيرة في رعيّته، حسن المعاملة مع التجّار، كثير الإحسان إليهم، وأمّا أصحابه فكانوا معه في أرغد عَيش يعمّهم بإحسانه، ولا يخافون أذاه، وكان عاجزاً عن حفظ بلده، مسلّماً الأمور إلى نوّابه.

ولما تُوفّي ملك بعده ابنه عماد الدّين شاهنشاه، وركب الناس معه، وبقي مالكاً لسِنجار عدّة شهور، وسار إلى تلّ أعْفَر وهي له، فدخل عليه أخوه عمر بن محمّد بن زنكي، ومعه جماعة، فقتلوه، وملك أخوه عمر بعده فبقي كذلك إلى أن سلّم سِنجار إلى الملك الأشرف، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، ولم يمتّع بملكه الذي قطع رحِمه، وأراق الدّم الحرام لأجْله.

ولمّا سلّم سِنجار أخذ عوضها الرَّقة، ثمّ أُخذت منه عن قريب، وتُوفّي بعد أخذها منه بقليل، وعدم روحه وشبابه. وهذه عاقبة قطيعة الرحِم، فإنّ صلتها تزيد في العمر وقطيعتها تهدم العمر.

ذكر إجلاء بني معروف عن البطائح وقتلهم

في هذه السنة، في ذي القعدة، أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف مَعَدّاً[4]، متولّي بلاد واسط، أن يسير إلى قتال بني معروف، فتجهّز، وجمع معه من الرجّالة من تكريتَ، وهِيت، والحَدِيثَة، والأنبار، والحِلّة، والكُوفة، وواسِط، والبَصرة، وغيرها،

---

(١) في (أ): «وجد كطعان».
(٢) العسجد المسبوك ٢/٣٦٦.
(٣) أنظر عن (محمد بن زنكي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٦هـ.) ص٣١٥.
(٤) في الأوربية: «معد».

خلقاً كثيراً، وسار إليهم، ومقدّمهم حينئذٍ مُعَلّى بن معروف، وهم قوم من ربيعة.

وكانت بيوتهم غربيّ الفرات[1]، تحت سُورَاء، وما يتّصل بذلك من[2] البطائح، وكثُر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى، وقطعوا الطريق، وأفسدوا (في)[3] النواحي المقاربة لبَطِيحَةِ العَرّاق، فشكا أهل تلك البلاد إلى الدّيوان منهم، فأمر مَعَدّاً أن يسير إليهم في الجُموع، فسار إليهم، فاستعدّ بنو معروف لقتاله، فاقتتلوا بموضع يُعرف بالمقبر، وهو تلّ كبير بالبَطِيحَة بقرب العَرّاق، وكثُر القتل بينهم، ثمّ انهزم بنو معروف، وكثُر القتل فيهم، والأسر، والغرق، وأُخذت أموالهم، وحُملت رؤوس (كثيرة من)[4] القتلى إلى بغداد في ذي الحجّة من السنة[5].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، انهزم عماد الدّين زنكي من عسكر بدر الدّين.

وفيها، في العشرين من رجب، انهزم بدر الدّين من مظفّر الدّين، صاحب إربل، وعاد مظفّر الدّين إلى بلده، وقد تقدّم ذلك مُسْتَوفًى في سنة خمس عشرة وستّمائة.

وفيها، ثامن صفر، تُوفّي قُطب الدّين محمّد بن زنكي[6] بن مودود بن زنكي، صاحب سنجار، وملك بعده ابنه شاهنشاه.

وفيها، في التاسع والعشرين من شعبان، ملك الفرنج مدينة دِمياط، وقد ذُكر سنة أربع عشرة [وستّمائة] مشروحاً.

[الوفيات]

وفيها تُوفّي افتخار الدّين عبد المطّلب بن الفضل[7] الهاشميّ العبّاسيّ، الفقيه الحنفيّ، رئيس الحنفيّة بحلب، روى الحديث عن عمر البِسطاميّ نَزيل بَلْخ، وعن أبي

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

(٢) في (ب): «إلى».

(٣) من (ب).

(٤) من (ب).

(٥) العسجد المسبوك ٢/ ٣٦٧.

(٦) أنظر عن (محمد بن زنكي) في: تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦١١-٦٢٠هـ.) ص ٣١٥ رقم٤٠٧ وفيه مصادر ترجمته.

(٧) أنظر عن (عبد المطّلب بن الفضل) في: تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦١١-٦٢٠هـ.) ص ٣٠١ رقم ٣٨٤، وفيه مصادر ترجمته.

سعد السمعانيّ وغيرهما.

وفيها تُوفّي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العُكْبَرِيّ[1]، الضرير، النحْويّ وغيره.

وفيها تُوفّي أبو الحسَن عليُّ بن أبي محمّد القاسم بن عليّ بن الحسن بن عبد الله الدّمشقيّ، الحافظ ابن الحافظ، المعروف بابن عساكر[2]، وكان قد قصد خُراسان وسمع بها الحديث فأكثر، وعاد إلى بغداد، فوقع على القَفَل حراميّةٌ، فجُرح، وبقي ببغداد، وتُوفّي في جُمادى الأولى، رحمه الله.

(١) أنظر عن (العُكبَري) في: تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦١١-٦٢٠هـ.) ص٢٩٣ رقم ٣٧٠، وفيه مصادر ترجمته.

(٢) أنظر عن (ابن عساكر) في: تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦١١-٦٢٠هـ.) ص٣٠٧رقم٣٩٤، وفيه حشدت مصادر ترجمته.

٦١٧
ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام

لقد بقيتُ عدّة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذِكرها، فأنا أقدّم إليه [رِجلاً] وأؤخّر أخرى، فمَن الذي يسهل عليه أن يكتب نعيّ الإسلام والمسلمين، ومَن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمّي لم تَلِدْني، ويا ليتني مُتّ قبل حدوثها وكنتُ نَسياً مَنْسيّاً، إلاّ أنّي حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقّف، ثمّ رأيتُ أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا[1] الفعل يتضمّن ذِكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقّت[2] الأيّام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق، وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إنّ العلم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن، لم يُبْتَلَوْا بمثلها؛ لكان صادقاً، فإنّ التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يُدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخُت نَصّر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدّس، وما البيت المقدّس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد، التي كلّ مدينة منها أضعاف البيت المقدّس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى مَن قتلوا، فإنّ أهل مدينة واحدة ممّن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعلّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض[3] العالم، وتفنى الدّنيا، إلاّ يأجوج ومأجوج.

وأمّا الدّجّال فإنّه يُبقي على مَن اتّبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجِنّة، فإنّا

---

(١) في (ب): «إن هذا».

(٢) في (أ): «عقمت».

(٣) في الأوربية: «يتعرّض».

لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعمّ ضررها، وسارت في البلاد كالسّحاب استدبرته الرّيح، فإنّ قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تُركِستان مثل كَاشْغَرَ وبلاساغون، ثمّ منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سَمَرْقَنْد وبُخارى وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثمّ تعبر طائفة منهم إلى خُراسان، فيفرغون منها مُلكاً، وتخريباً، وقتلاً، ونهباً، ثمّ يتجاوزونها إلى الرَّيّ، وهَمَذان، وبلد الجبل (وما فيها من البلاد)[1] إلى حدّ العراق، ثمّ يقصدون بلاد أذْرَبيجان وأرّانيّة، ويخرّبونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلاّ الشريد النادر[2] في أقلّ من سنة، هذا ما لم يُسمع بمثله.

ثمّ لمّا فرغوا من أذْرَبيجان وأرّانيّة ساروا إلى دَرْبَنْد شِرْوان فملكوا مُدنه، ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللاّن، واللّكْز، ومَن في ذلك الصُّقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم[3] قتلاً، ونهباً، وتخريباً؛ ثمّ قصدوا بلاد قَفجاق، وهم من أكثر التُرْك عدداً، فقتلوا كلّ من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان، لم يلبثوا إلاّ بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غَزْنَة وأعمالها، وما يجاورها من بلاد الهند وسِجِسْتانَ وكَرْمَان، ففعلوا فيه مثل فعل هؤلاء وأشدّ.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإنّ الإسكندر الذي اتّفق المؤرّخون على أنّه ملك الدّنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنّما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً، إنّما رضي من الناس بالطاعة؛ وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارةً وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة، في نحو سنة، ولم يبقَ أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلاّ وهو خائف يتوقّعهم، ويترقّب وصولهم إليه.

ثمّ إنّهم لا يحتاجون إلى مِيرة ومَدد يأتيهم، فإنّهم معهم الأغنام، والبقر، والخيل، وغير ذلك من الدّوابّ، يأكلون لحومها لا غير؛ وأمّا دوابّهم التي يركبونها

---

(١) من (أ).

(٢) في (أ): «النافر».

(٣) في الأوربية: «فأوسعهم».

فإنّها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

وأمّا ديانتهم، فإنّهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يُحرِّمون شيئاً، فإنّهم يأكلون جميع الدّوابّ، حتّى الكلاب، والخنازير، وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدّة بمصائب لم يُبتلَ بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر، قبّحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كلّ من سمع بها، وستراها مشروحة متّصلة، إن شاء الله تعالى.

ومنها خروج الفرنج، لعنهم الله، من المغرب إلى الشام، وقصْدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دِمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستّمائة.

ومنها أنّ الذي سلِم من هاتَيْن الطائفتين فالسيف بينهم مسلولٌ، والفتنة قائمة على ساق، وقد ذكرناه أيضاً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسّر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإنّ الناصر، والمعين، والذّاب، عن الإسلام معدوم، **﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾**[1]، فإنّ هؤلاء التتر إنّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

وسبب عدمه أنّ خُوارزم شاه محمّداً كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلمّا انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم، ولا مَن يحميها **﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾**[2]، وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد.

ذكر خروج التتر إلى تُركِستان وما وراء النهر وما فعلوه

في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام، وهم نوع كثير من الترك، ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين، وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستّة أشهر.

وكان السبب في ظهورهم أنّ ملكهم، ويسمّى بجِنْكِزْخانَ، المعروف

---

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٢.

بتَمُرْجين[1]، كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحي تُركِستان، وسيّر جماعة من التّجّار والأتراك، ومعهم شيء كثير من النُّقرة والقُنْدُز[2] وغيرهما، إلى بلاد ما وراء النهر سَمَرْقَنْدَ وبُخارى ليشتروا له[3] ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد التُّرك تُسمّى أوترار، وهي آخر ولاية خُوارزم شاه، وكان له نائب هناك، فلمّا ورد عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خُوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خُوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخْذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه، فقتلهم، وسيّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً فلمّا وصل إلى خُوارزم شاه فرّقه على تجار بُخارى، وسَمَرْقَند، وأخذ ثمنه منهم.

وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سدّ الطرق عن بلاد تُركِستان وما بعدها من البلاد، وإنّ طائفة من التتر أيضاً كانوا قد خرجوا قديماً والبلاد للخطا، فلمّا ملك خُوارزم شاه البلاد بما وراء النهر من الخطا، وقتلهم، واستولى هؤلاء التتر على تُركِستان: كاشْغار، وبلاساغون وغيرهما، وصاروا يحاربون عساكر خُوارزم شاه، فلذلك منع الميرة عنهم من الكُسوات وغيرها. وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك ممّا لا يُذكر في بطون الدّفاتر[4]:

فكـانَ مـا كـانَ مِمّـا لسـتُ أذكُـرُهُ ... فظُـنّ خَيـراً ولا تَسـألْ عَـنِ الخبـرِ

فلمّا قتل نائب خُوارزم شاه أصحاب جِنكِزْخان أرسل جواسيس إلى جِنكِزْخان لينظر ما هو، وكم مقدار ما معه من التُّرك، وما يريد أن يعمل، فمضى الجواسيس، وسلكوا المفازة والجبال التي على طريقهم، حتّى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدّة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم، وأنّهم يخرجون عن الإحصاء، وأنّهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنّهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، فندم خُوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخْذ أموالهم، وحصل عنده فِكرٌ زائد، فأحضر الشهاب الخيوفيّ، وهو فقيه فاضل، كبير المحلّ عنده، لا يخالف ما يشير به، فحضر

---

(١) في طبعة صادر ١٢/ ٣٦١ «تموجين» والتصحيح من: سيرة جلال الدين ٣٩، وتاريخ جهانكشاي للجويني ـ طبعة ليدن ١٩١١ ـ ص ٢٦ و٢٨.
(٢) في طبعة صادر ١٢/ ٣٦١ «القندر» بالراء المهملة، والتصحيح من: تاريخ الإسلام ٣٧.
(٣) في (أ): «به».
(٤) في (ب) زيادة: «والأوراق».

عنده، فقال له: قد حدث أمر عظيم لا بدّ من الفكر فيه وأخْذ[1] رأيك في الذي نفعله، وذاك أنّه قد تحرّك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تُحصى.

فقال له: في عساكرك كثرة ونكاتب الأطراف، ونجمع العساكر، ويكون النفير عامّاً، فإنّه يجب على المسلمين كافّة مساعدتك بالمال والنفس، ثمّ نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحونَ، وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الإسلام، فنكون هناك، فإذا جاء العدوّ، وقد سار مسافة بعيدة، لقيناه ونحن مستريحون، وهو وعساكره قد مسّهم النَّصَبُ والتعب.

فجمع خُوارزم شاه أُمراءه ومَن عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم، فلم يوافقوه على رأيه، بل قالوا: الرأي أن نتركهم يعبرون سيحون إلينا، ويسلكون هذه الجبال والمضايق، فإنّهم جاهلون بطرقهم، ونحن عارفون بها، فنقوى حينئذٍ عليهم، ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد.

فبينما هم كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جِنْكِزْخان معه جماعة يتهدّد خُوارزم شاه، ويقول: تقتلون أصحابي وتجّاري وتأخذون مالي منهم! استعدّوا للحرب فإنّي واصل إليكم بجمع لا قِبَل لكم به.

وكان جِنْكِزْخان قد سار إلى تُركِستان، فملك كاشْغَار[2]، وبلاساغون، وجميع تلك البلاد، وأزال عنها التتر الأولى، فلم يظهر لهم خبر، ولا بقي لهم أثر، بل بادوا كما أصاب الخطا، وأرسل الرسالة المذكورة إلى خُوارزم شاه؛ فلمّا سمعها خُوارزم شاه أمر بقتل رسوله، فقُتل، وأمر بحلق لحى[3] الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى صاحبهم جِنْكِزْخان يخبرونه بما فعل بالرسول، ويقولون له: إن خُوارزم شاه (يقول لك: أنا)[4] سائر إليك ولو أنّك في آخر الدّنيا، حتّى أنتقم، وأفعل بك كما فعلتُ بأصحابك.

وتجهّز خُوارزم شاه، وسار بعدَ الرسول مبادراً ليسبق خبره ويكبسهم، فأدمن السير، فمضى، وقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلاّ النساء

---

(١) في الأوربية: «فأخذ».
(٢) في نهاية الأرب ٢٧/ ٣٠٥ «كاشغر».
(٣) في الأوربية: «لحا».
(٤) من (ب).

والصبيان والأثقال، فأوقع بهم وغنم الجميع، وسبى النساء والذُّرِّيّة.

وكان سبب غيبة الكفّار[1] عن بيوتهم أنّهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان[2]، فقاتلوه، وهزموه، وغنموا أمواله وعادوا، فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خُوارزم شاه بمخلّفيهم، فجدّوا السير، فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم، وتصافّوا للحرب، واقتتلوا قتالاً لم يُسمع بمثله، فبقوا في الحرب ثلاثة أيّام بلياليها، فقُتل من الطائفتين ما لا يُعدّ، ولم ينهزم أحد منهم.

أمّا المسلمون فإنّهم صبروا حميّةً للدّين، وعلموا أنّهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنّهم يؤخذون لبُعدهم عن بلادهم.

وأمّا الكفّار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، واشتدّ بهم الأمر، حتّى إنّ أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قِرنه راجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، وجرى الدّم على الأرض، حتّى صارت الخيل تزلق من كثرته، واستنفد الطائفتان وُسعهم في الصبر والقتال. هذا القتال جميعه مع ابن جِنْكِزْخان ولم يحضر أبوه الوقعة، ولم يشعر بها، فأُحصي مَن قُتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفاً، وأمّا من الكفّار فلا يُحصى مَن قُتل منهم.

فلمّا كان الليلة الرابعة افترقوا، فنزل بعضهم مقابل بعض، فلمّا أظلم الليل أوقد الكفّار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا، وكذلك فعل المسلمون أيضاً، كلّ منهم سئم القتال؛ فأمّا الكفّار فعادوا إلى ملكهم جِنْكِزْخان؛ وأمّا المسلمون فرجعوا إلى بُخارى، فاستعدّ للحصار لعلمه بعجزه، لأنّ طائفة عسكره لم يقدر خُوارزم شاه على أن يظفر بهم، فكيف إذا جاؤوا جميعهم مع ملكهم؟ فأمر أهل بُخارى وسَمَرْقَند بالاستعداد[3] للحصار، وجمع الذّخائر للامتناع، وجعل في بُخارى عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها، وفي سَمَرْقَنْد خمسين ألفاً، وقال لهم: احفظوا البلد حتّى أعود إلى خُوارزم وخُراسان وأجمع العساكر وأستنجد بالمسلمين وأعود إليكم.

فلمّا فرغ من ذلك رحل عائداً إلى خُراسان، فعبَر جَيحون، ونزل بالقرب من بَلْخ فعسكر هناك.

---

(١) في (أ): «التتر».

(٢) في (أ) و (ب): «كشلي خان» والمثبت يتفق مع: نهاية الأرب ٢٧/ ٣٠٤.

(٣) في الأوربية: «بالستعداد».

وأمّا الكفّار فإنّهم رحلوا بعد أن استعدّوا يطلبون ما وراء النهر، فوصلوا إلى بُخارى بعد خمسة أشهر من وصول خُوارزم شاه، وحصروها، وقاتلوها ثلاثة أيّام قتالاً (شديداً)[١] متتابعاً، فلم يكن للعسكر الخُوارزميّ بهم قوّة، ففارقوا البلد عائدين إلى خُراسان، فلمّا أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعُفت نفوسهم، فأرسلوا القاضي، وهو بدر الدّين[٢] قاضي خان، ليطلب الأمان للناس، فأعطوهم الأمان.

وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم، فاعتصموا بالقلعة، فلمّا أجابهم جِنكِزْخان إلى الأمان فُتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذي الحجّة من سنة ستّ عشرة وستّمائة، فدخل الكفّار[٣] بُخارى، ولم يتعرّضوا لأحدٍ بل قالوا لهم: كلّ ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه إلينا، وساعدونا على قتال مَن بالقلعة؛ وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة، ودخل جِنكِزْخان بنفسه وأحاط بالقَلْعة، ونادى في البلد بأن لا يتخلّف أحد ومَن تخلّف قُتل، فحضروا جميعهم، فأمرهم بطمّ الخندق، فطمّوه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، حتّى إنّ الكفّار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وبحقّ سمّى الله نفسه صبوراً حليماً، وإلاّ كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا.

ثمّ تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربع مائة فارس من المسلمين، فبذلوا جُهدهم، ومنعوا القلعة اثني عشر يوماً يقاتلون جمع الكفّار وأهل البلد، فقُتل بعضهم، ولم يزالوا كذلك حتّى زحفوا إليهم، ووصل النقّابون إلى سور القلعة فنقبوه، واشتدّ حينئذٍ القتال، ومَن بها من المسلمين يرمون ما يجدون من حجارة ونار وسهام، فغضب اللعين، وردّ أصحابه ذلك اليوم، وباكرهم من الغد، فجدّوا في القتال، وقد تعب مَن بالقلعة ونصبوا، وجاءهم ما لا قِبَل لهم به، فقهرهم الكفّار ودخلوا القلعة، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتّى قُتلوا عن آخرهم، فلمّا فرغ من القلعة نادى أن يُكتب له وجوه النّاس ورؤساؤهم، ففعلوا ذلك، فلمّا عُرضوا عليه أمر بإحضارهم

---

(١) من (أ).

(٢) في (أ): «بدر الدين بن».

(٣) في (أ): «التتر».

فحضروا، فقال: أريد منكم النُّقرة التي باعكم خُوارزم شاه، فإنّها لي، ومن أصحابي أُخذت، وهي عندكم.

فأحضر كلّ من كان عنده شيء منها بين يديه، ثمّ أمرهم بالخروج من البلد، فخرجوا من البلد مجرّدين من أموالهم، ليس مع أحدٍ منهم غير ثيابه التي عليه، ودخل الكفّار البلد فنهبوه وقتلوا مَن وجدوا فيه، وأحاط بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم[1].

وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرّقوا أيدي سبا، وتمزّقوا كلّ مُمزَّق، واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بُخارى خاويةً على عروشها كأن لم تَغنَ بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً ممّا نزل بهم، فمنهم مَن لم يرض بذلك، واختار الموت على ذلك، فقاتل حتّى قُتل، وممّن فعل ذلك واختار أن يُقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين، الفقيه الإمام ركن الدّين إمام زاده وولده، فإنّهما لمّا رأيا ما يُفعل بالحُرَم قاتلا حتى قُتلا.

وكذلك فعل القاضي صدر الدّين خان، ومن استسلم أُخذ أسيراً، وألقوا النار في البلد، والمدارس، والمساجد، وعذّبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال؛ ثمّ رحلوا نحو سَمَرْقَنْد وقد تحقّقوا عجز خُوارزم شاه عنهم، وهم بمكانه بين تِرْمِذَ وبَلْخ، واستصحبوا معهم مَن سلم من أهل بُخارى أسارى، فساروا بهم مُشاة على أقبح صورة، فكلّ مَن أعيا وعجز عن المشي قتلوه، فلمّا قاربوا سَمَرْقَنْد قدّموا الخيالة، وتركوا الرَّجّالة والأسارى والأثقال وراءهم، حتّى تقدّموا شيئاً فشيئاً، ليكون أرعب لقلوب المسلمين؛ فلمّا رأى أهل البلد سوادهم استعظموه.

فلمّا كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرَّجّالة والأثقال، ومع كلّ عشرة من الأسارى علمٌ، فظنّ أهل البلد أنّ الجميع عساكر مقاتلة، وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزميّة، وأمّا عامّة البلد فلا يُحصَون كثرةً، فخرج إليهم شجعان أهله، وأهل الجَلد والقوّة رجّالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخُوارزميّ أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين، فقاتلهم الرَّجّالة بظاهر البلد، فلم يزل التتر

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩، العسجد المسبوك ٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧٢.

يتأخّرون، وأهل البلد يتبعونهم، ويطمعون فيهم، وكان الكفّار قد كمَّنوا لهم كميناً، فلمّا جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد، ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولاً، فبقوا في الوسط، وأخذهم السيف من كلّ جانب، فلم يسلم منهم أحد؛ قُتلوا عن آخرهم شهداء، رضي الله عنهم[١]، وكانوا سبعين ألفاً على ما قيل[٢].

فلمّا رأى الباقون من الجُند والعامّة ذلك ضعُفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك، فقال الجُند، وكانوا أتراكاً: نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا؛ فطلبوا الأمان، فأجابوهم إلى ذلك، ففتحوا أبواب البلد، ولم يقدر العامّة على منعهم، وخرجوا إلى الكفّار بأهلهم وأموالهم، فقال لهم الكفّار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابّكم ونحن نسيّركم إلى مأمنكم؛ ففعلوا ذلك، فلمّا أخذوا أسلحتهم ودوابّهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا أموالهم ودوابّهم ونساءهم.

فلمّا كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم، ومن تأخّر قتلوه، فخرج (جميع)[٣] الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سَمَرْقَنْد مثل فعلهم مع أهل بُخارى من النهب، والقتل، والسبي، والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله، وافتضُّوا الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، وقتلوا من لم يصلُح للسبي، وكان ذلك في المحرّم سنة سبع عشرة وستّمائة.

وكان خُوارزم شاه بمنزلته كلّما اجتمع إليه عسكر سيّره إلى سَمَرْقَند، فيرجعون ولا يقدرون على الوصول إليها، نعوذ بالله من الخذلان؛ سيّر مرّة عشرة آلاف فارس فعادوا كالمنهزمين من غير قتال، وسيّر عشرين ألفاً فعادوا أيضاً[٤].

ذكر مسير التتر الكُفّار إلى خُوارزم شاه وانهزامه وموته

لمّا ملك الكفّار سَمَرْقَند عمد جِنكِزخان، لعنه الله، وسيّر عشرين ألف فارس، وقال لهم: اطلبوا خُوارزم شاه أين كان، ولو تعلّق بالسماء، حتّى تدركوه وتأخذوه.

وهذه الطائفة تسمّيها التتر المغرّبة[٥] لأنّها سارت نحو غرب خُراسان ليقع الفرق

---

(١) في الأوربية: «منهم».

(٢) البداية والنهاية ١٣/٨٨، العسجد المسبوك ٢/٣٧٢، ٣٧٣.

(٣) من (أ). وفي (ب): «الجميع».

(٤) نهاية الأرب ٢٧/٣٠٩ ـ ٣١١.

(٥) في (أ): «المغربية».

بينهم وبين غيرهم منهم، لأنّهم هم الذين أوغلوا في البلاد؛ فلمّا أمرهم جِنْكِزْخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعاً يسمّى بَنْج[1] آب، ومعناه خمسة[2] مياه، فوصلوا إليه، فلم يجدوا هناك سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض[3] الكبار وألبسوها جلود البقر لئلاّ يدخلها[4] الماء، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل في الماء، وأمسكوا أذنابها، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره، فعبروا كلّهم دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزم شاه إلاّ وقد صاروا معه على أرض واحدة.

وكان المسلمون قد مُلئوا منهم رعباً وخوفاً، وقد اختلفوا فيما بينهم، إلاّ أنّهم كانوا يتماسكون بسبب أنّ نهر جَيحون بينهم، فلمّا عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات، ولا على المسير مجتمعين، بل تفرّقوا أيدي سبا، وطلب كلّ طائفة منهم جهة، ورحل خُوارزم شاه لا يلوي على شيءٍ في نفرٍ من خاصّته، وقصدوا نَيسابور[5]، فلمّا دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقرّ حتّى وصل أولئك التتر إليها.

وكانوا لا يتعرّضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدّون السير في طلبه لا يمهلونه حتّى يجمع لهم، فلمّا سمع بقربهم منه رحل إلى مازَنْدُران، وهي له أيضاً، فرحل التتر المغرّبون في أثره، ولم يعرّجوا على نَيسابور بل تبعوه، فكان كلّما رحل عن منزلة نزلوها، فوصل إلى مرسى من بحر طَبَرِستان يُعرف بباب سكون، وله هناك قلعة في البحر، فلمّا نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر، فلمّا رأوا خُوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلمّا أيسوا من لحاق خُوارزم شاه رجعوا، فهم الذين قصدوا الرَّيّ وما بعدها، على ما نذكره إن شاء الله.

هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممّن كان ببُخارى وأسروه معهم إلى سَمَرْقَند، ثمّ نجا منهم ووصل إلينا، وذكر غيره من التّجار أنّ خُوارزم شاه سار من مازَندران حتّى وصل إلى الرَّيّ، ثمّ منها إلى هَمَذان، والتتر في أثره، ففارق هَمَذان في نفر يسير،

---

(١) في الأوربية: «فنج».

(٢) في الأوربية: «خمس».

(٣) في (أ): «الحياض».

(٤) في الأوربية: «يدخاها».

(٥) في (أ): «وقصد نشاور».

جريدة، ليستر نفسه ويكتم خبره، وعاد إلى مازَنْدران وركب في البحر إلى هذه القلعة.

وكان هذا هو الصحيح، فإنّ الفقيه كان حينئذٍ مأسوراً، وهؤلاء التّجار أخبروا أنّهم كانوا بِهَمَذان، ووصل خُوارزم شاه، ثمّ وصل بعده من أخبره بوصول التتر، (ففارق هَمَذان، وكذلك أيضاً هؤلاء التّجار فارقوها، ووصل التتر)[1] إليها بعدهم ببعض نهار، فهم يُخبرون عن مشاهدة؛ ولمّا وصل خُوارزم شاه إلى هذه القلعة المذكورة تُوفّي فيها[2].

ذكر صفة خُوارزم شاه[3] وشيء من سيرته

هو علاء الدّين محمّد بن علاء الدّين تِكش، وكان مدّة مُلكه إحدى[4] وعشرين سنة وشهوراً تقريباً، واتّسع مُلكه، وعظُم محلّه وأطاعه العالم بأسره، ولم يملك بعد السلجوقيّة أحد مثل ملكه، فإنّه ملك من حدّ العراق إلى تُركِستان، وملك بلاد غَزْنة وبعضَ الهند، وملك سِجِسْتان، وكِرْمان، وطَبرِستان، وجُرجان، وبلاد الجبال، وخُراسان، وبعض فارس، وفعل بالخطا الأفاعيل العظيمة، وملك بلادهم.

وكان فاضلاً، عالماً بالفقه والأصول وغيرهما، وكان مُكرماً للعلماء مُحِبّاً لهم محسناً إليهم، يُكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه، وكان صبوراً على التّعب وإدمان السير، غير متنعّم، ولا مُقبل على اللّذّات، إنّما همّه في المُلك وتدبيره، وحِفْظه وحِفْظ رعاياه؛ وكان مُعظّماً لأهل الدّين، مُقبلاً عليهم، متبرّكاً بهم.

حكى لي بعض خدم حجرة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وقد عاد من خُراسان، قال: وصلت إلى خُوارِزْم، فنزلتُ ودخلتُ الحمّام، ثمّ قصدتُ باب السلطان علاء الدّين، فحين حضرتُ لقيني إنسان، فقال: ما حاجتك؟ فقلتُ له: أنا من خَدَم حُجرة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم؛ فأمرني بالجلوس، وانصرف عنّي [قليلاً]، ثمّ عاد إليّ وأخذني وأدخلني إلى دار السلطان، (فتسلّمني منه حاجبٌ من حجّاب السلطان)[5]،

---

(١) من (ب).

(٢) سيرة جلال الدين ١٠٧، ١٠٨، العسجد المسبوك ٢/ ٣٧٤، نهاية الأرب ٢٧/ ٣١٢.

(٣) أنظر عن (خوارزم شاه) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٧هـ.) ص ٣٦٣.

(٤) في الأوربية: «واحداً».

(٥) من (ب).

وقال لي: قد أعلمتُ السلطان خبرك فأمر بإحضارك عنده؛ فدخلتُ إليه وهو جالسٌ في صدر إيوان كبير، فحين توسّطتُ صحن الدّار قام قائماً، ومشى إلى بين يديّ، فأسرعتُ السير فلقيته في وسط الإيوان، فأردت أن أُقبّل يده، فمنعني، واعتنقني، وجلس وأجلسني إلى جانبه، وقال لي: أنت تخدم حجرة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم؟ فقلتُ: نعم؛ فأخذ يدي وأمرّها على وجهه[1]، وسألني عن حالنا وعيشنا، وصفة المدينة، ومقدارها، وأطال الحديث معي، فلمّا خرجتُ من عنده قال: لولا أنّنا على عزْم السفر هذه الساعة لما ودّعتُك، إنّما نريد [أن] نعبر جَيحون إلى الخطا، وهذا طريق مبارك حيث رأينا من يخدم حجرة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم؛ ثمّ ودّعني[2] وأرسل إليّ جملة كثيرة من النفقة، ومضى، وكان منه ومن الخطا ما ذكرناه، وبالجملة، فاجتمع فيه ما تفرّق في غيره من ملوك العالم، رحمه الله، ولو أردنا ذِكر مناقبه لطال [ذلك].

ذكر استيلاء التتر المغرّبة على مازَنْدَران

لمّا أيس التتر المغرّبة من إدراك خُوارزم شاه، عادوا[3] فقصدوا بلاد مازَندران، فملكوها في أسرع وقت، مع حصانتها وصعوبة الدّخول إليها، وامتناع قلاعها، فإنّها لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه، حتّى إنّ المسلمين لمّا ملكوا بلاد الأكاسرة جميعها، من العراق إلى أقاصي خُراسان، بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم[4] الخراج، ولا يقدرون على دخول البلاد، إلى أن مُلكت أيّام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواً عفواً لأمر يريده الله تعالى.

ولمّا ملكوا بلد مازَندران قتلوا، وسَبَوْا، ونهبوا، وأحرقوا البلاد، ولمّا فرغوا من مازَندران سلكوا نحو الرَّيّ، فرأوا في الطريق والدة خُوارزم شاه ونساءه، وأموالهم، وذخائرهم التي لم يُسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة، وكان سبب ذلك أنّ والدة خُوارزم شاه لمّا سمعت بما جرى على ولدها خافت، ففارقت خُوارزم وقصدت نحو الرَّيّ لتصل إلى أصفهان وهَمَذان وبلد الجبل تمتنع فيها، فصادفوها في الطريق،

---

(١) في (ب): «على جسده ووجهه».

(٢) في (ب): «من يخدم ملك الحجرة الشريفة ثم ودعني».

(٣) في الأوربية: «فعادوا».

(٤) في (أ): «منها».

فأخذوها وما معها قبل وصولهم إلى الرَّيّ، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم، وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع، ونفيس من الجوهر، وغير ذلك، وسيّروا الجميع إلى جِنكِزْخان بسَمَرْقَند[1].

ذكر وصول التتر إلى الرَّيّ وهَمَذان

في سنة سبع عشرة وستّمائة وصل التتر، لعنهم الله، إلى الرَّيّ في طلب خُوارزم شاه محمّد، لأنّهم بلغهم أنّه مضى منهزماً منهم نحو الرَّيّ، فجدّوا السير في أثره، وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفّار، وكذلك أيضاً من المفسدين من يريد النهب والشرّ، فوصلوا إلى الرَّيّ على حين غفلة من أهلها، فلم يشعروا بهم إلاّ وقد وصلوا إليها، وملكوها، ونهبوها، وسبوا الحريم، واسترقّوا الأطفال، وفعلوا الأفعال التي لم يُسمع بمثلها، ولم يقيموا، ومضوا مسرعين في طلب خُوارزم شاه، فنهبوا في طريقهم كلّ مدينة وقرية مرّوا عليها، وفعلوا في الجميع أضعاف ما فعلوا في الرَّيّ، وأحرقوا، وخرّبوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال، فلم يُبقوا على شيء.

وتمّوا على حالهم إلى هَمَذان، وكان خُوارزم شاه قد وصل إليها في نفر من أصحابه، ففارقها وكان آخر العهد به، فلا يُدرى ما كان منه (فيما حكاه بعضهم عنه، وقيل غير ذلك، وقد ذكرناه)[2].

فلمّا قاربوا هَمَذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدوابّ وغير ذلك، يطلب الأمان لأهل البلد، فأمّنوهم[3]، ثمّ فارقوها وساروا إلى زَنْجَانَ ففعلوا أضعاف ذلك؛ وساروا ووصلوا إلى قَزوين، فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم، فقاتلوهم، وجدّوا في قتالهم، ودخلوها عَنوةً بالسيف، فاقتتلوا هم وأهل البلد في باطنه، حتّى صاروا يقتتلون بالسكاكين، فقُتل من الفريقين ما لا يُحصى، ثمّ فارقوا قزوين، فعُدّ القتلى من أهل قزوين، فزادوا على أربعين ألف قتيل[4].

ذكر وصول التتر إلى أذْرَبِيجان

لمّا هجم الشتاء على التتر في هَمَذان، وبلد الجبل، رأوا برداً شديداً، وثلجاً

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/ ٣١٢، ٣١٣.

(٢) من (أ).

(٣) في (أ): «فأمنوهم وحيث لم يعلموا خبر خوارزم شاه فارقوها».

(٤) نهاية الأرب ٢٧/ ٣١٢، ٣١٣، العسجد المسبوك ٢/ ٣٧٥، ٣٧٦.

متراكماً، فساروا إلى أذْرَبِيجان، ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدّم منهم، وخرّبوا وأحرقوا، ووصلوا إلى تِبرِيز وبها صاحب أذْرَبِيجان أوزبك بن البهلوان، فلم يخرج إليهم، ولا حدّث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشُّرب ليلاً ونهاراً لا يفيق، وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال، وثياب، ودوابّ، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر، لأنّه يكون قليل البرد، ليشتوا عليه والمراعي به كثيرة لأجل دوابّهم، فوصلوا إلى مُوقان[1]، وتطرّقوا في طريقهم إلى بلاد الكُرج، فجاء إليهم من الكُرج جمع كثير من العسكر، نحو عشرة آلاف مقاتل، فقاتلوهم، فانهزمت الكُرج، وقُتل أكثرهم.

وأرسل الكُرج إلى أوزبك، صاحب أذْرَبِيجان، يطلبون منه الصلح والاتّفاق معهم على دفع التتر، فاصطلحوا ليجتمعوا إذا انحسر الشتاء؛ وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل، صاحب خِلاط وديار الجزيرة، يطلبون منه الموافقة عليهم، وظنّوا جميعهم أنّ التتر يصبرون في الشتاء إلى الربيع، فلم يفعلوا كذلك، بل تحرّكوا وساروا نحو بلاد الكُرج، وانضاف إليهم مملوك تركيّ من مماليك أوزبك، اسمه أقوش، وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير، وراسل التتر في الانضمام إليهم، فأجابوه إلى ذلك، ومالوا إليه للجنسيّة، فاجتمعوا وساروا في مقدّمة التتر إلى الكُرج، فملكوا حصناً من حصونهم وخرّبوه، ونهبوا البلاد وخرّبوها، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم، حتّى وصلوا إلى قرب تِفْلِيس.

فاجتمعت الكُرج وخرجت بحدّها وحديدها إليهم، فلقيهم أقوش أوّلاً فيمن اجتمع إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه كلّهم، فقُتل من أصحاب أقوش خلق كثير، وأدركهم التتر وقد تعب الكُرج من القتال، وقُتل منهم أيضاً كثير، فلم يثبتوا للتتر، وانهزموا أقبح هزيمة، وركبهم السيف من كلّ جانب، فقُتل منهم ما لا يُحصى كثرة، وكانت الوقعة في ذي القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم[2].

ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يُسمع بمثله من قديم الزّمان وحديثه: طائفة تخرج

---

(١) موقان: ولاية بأذربيجان.

(٢) نهاية الأرب ٢٧/٣١٣، ٣١٤، العسجد المسبوك ٢/٣٧٦.

من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتّى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزوا العراق من ناحية هَمَذان، وتالله لا شكّ أنّ من يجيء بعدنا، إذا بَعُد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة يُنكرها، ويستبعدها، والحقّ بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أنّنا سطّرنا نحن، وكلّ من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كلّ من فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسّر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دُفعوا من العدوّ إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدّى همّته بطنه وفرجه، ولم ينل المسلمين أذًى وشدّة مُذ جاء النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، إلى هذا الوقت مثل ما دُفعوا إليه الآن.

هذا العدوّ الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخرّبوها، وناهيك بهِ [سعة] بلاد، وتعدّت هذه الطائفة منهم النهر إلى خُراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك، ثمّ إلى الرَّيّ وبلد الجبل وأذْرَبِيجان، وقد اتّصلوا بالكُرج فغلبوهم على[1] بلادهم.

والعدوّ الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصى بلاد الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دِمياط، وأقاموا فيها، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها، ولا إخراجهم منها، وباقي ديار مصر على خطر، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

ومن أعظم الأمور على المسلمين أنّ سلطانهم خُوارزم شاه محمّداً قد عُدم لا يُعرف حقيقة خبره، فتارة يقال مات عند هَمَذان وأُخفي موته، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأُخفي موته لئلاّ يقصدها التتر في أثره، وتارة يقال عاد إلى طَبَرِسْتان وركب البحر، فتُوفّي في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عُدم، ثمّ صحّ موته ببحر طَبَرِسْتان، وهذا عظيم، إنّ مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائباً لا مانع له، ولا سلطان يدفع عنه، والعدوّ يجوس البلاد، يأخذ ما أراد ويترك ما أراد، على أنّهم لم يُبقوا على مدينة إلاّ خرّبوا كلّ ما مرّوا عليه، وأحرقوه، ونهبوه، وما لا يصلح لهم أحرقوه، فكانوا يجمعون الإبْرِيسَم تلالاً ويلقون فيه النار، وكذلك غيره من الأمتعة.

ذكر مُلك التتر مَراغة

في صفر سنة ثماني عشرة وستّمائة ملك التتر مدينة مَراغَةَ من أذْرَبِيجان.

---

(١) في (أ): «عن».

وسبب ذلك أنّنا ذكرنا سنة سبع عشرة وستّمائة ما فعله التتر بالكُرج، وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكُرج، فلمّا دخلت سنة ثماني عشرة وستّمائة ساروا من ناحية الكُرج لأنّهم رأوا أنّ بين أيديهم شوكة قوية، ومضايق تحتاج إلى قتال وصراع، فعدلوا عنهم، وهذه كانت عادتهم، إذا قصدوا مدينةً ورأوا عندها امتناعاً عدلوا عنها، فوصلوا إلى تِبْرِيز، وصانَعهم صاحبها بمال وثياب ودوابّ، فساروا عنه إلى مدينة مَرَاغَةَ، فحصروها وليس بها صاحبٌ يمنعها، لأنّ صاحبها كانت امرأة، وهي مقيمة بقلعة رويَندِز، وقد قال النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم: لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة[1].

فلمّا حصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق، وزحفوا إليها، وكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدّموا مَن معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويُقاتلون، فإن عادوا قتلوهم، فكانوا يقاتلون كرهاً، وهم المساكين، كما قيل: كالأشقر إن تقدّم يُنحر وإن تأخّر يُعقر؛ وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه.

فأقاموا عليها عدّة أيّام، ثمّ ملكوا المدينة عَنوة وقهراً رابع صفر، ووضعوا السيف في أهلها، فقُتل منهم ما يخرج عن الحدّ والإحصاء، ونهبوا كلّ ما يصلح لهم، وما لا يصلح لهم أحرقوه، واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم: نادوا في الدّروب أنّ التتر قد رحلوا؛ فإذا نادى أولئك خرج مَن اختفى فيؤخذُ ويُقتل.

وبلغني أنّ امرأةً من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنّونها رجلاً، فوضعت السلاح وإذا هي امرأة، فقتلها رجل أخذتْه أسيراً؛ وسمعتُ من بعض أهلها أنّ رجلاً من التتر دخل درباً فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتّى أفناهم، ولم يمدّ أحدٌ يده إليه بسوء، ووضعت الذلّة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً، نعوذ بالله من الخذلان.

ثمّ رحلوا عنها نحو مدينة إربل، ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصِل، فخفنا، حتّى إنّ بعض الناس همّ بالجلاء خوفاً من السيف، وجاءت كتب مظفّر الدّين، صاحب

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي ١٣٦/٥ في كتاب النبي، صلّى الله عليه وسلّم، إلى كسرى وقيصر، وفي الفتوح ٩٧/٨، والترمذي في الوصايا (٢٣٦٥)، والنسائي في آداب القضاة ٢٢٧/٨ باب النهي عن استعمال النساء في الحكم، وأحمد في المسند ٤٣/٥، ٥١.

إزبل، إلى بدر الدّين، صاحب الموصِل، يطلب منه نجدة من العساكر، فسيّر إليه جمعاً صالحاً من عسكره، وأراد أن يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر، ويحفظ المضايق لئلاّ يجوزها أحدٌ، فإنّها جميعها جبال وعرةٌ ومضايق لا يقدر [أن] يجوزها إلاّ الفارس بعد الفارس، ويمنعهم من الجواز إليه.

ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل وإلى مظفّر الدّين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دَقُوقَا ليمنعوا التتر، فإنّهم ربّما عدلوا عن جبال إزْبِل، لصعوبتها، إلى هذه الناحية، ويطرقون العراق، فسار مظفّر الدّين من إزْبِل في صفر، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل، وتبِعهم من المتطوّعة كثير.

وأرسل الخليفة أيضاً إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم، فاتّفق أنّ الملك المعظّم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف وهو بحرّان يستنجده على الفرنج الذين بمصر، وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلّهم إلى مصر ليستنقذوا دِمياط من الفرنج، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه، وقوّة الفرنج، وإن لم يتداركها، وإلاّ خرجت هي وغيرها، وشرع يتجهّز للمسير إلى الشام ليدخل مصر. وكان ما ذكرناه من استنقاذ دِمياط.

فلمّا اجتمع مظفّر الدّين والعساكر بدَقُوقَا سيّر الخليفة إليهم مملوكه قشتمر، وهو أكبر أمير بالعراق، ومعه غيره من الأمراء، في نحو ثماني مائة فارس، فاجتمعوا هناك (ليتّصل بهم باقي عسكر الخليفة)[1]، وكان المقدّم على الجميع مظفّر الدّين، فلمّا رأى قلّة العسكر لم يقدم على قصد التتر.

وحكى مظفّر الدّين قال: لمّا أرسل إليّ الخليفة في معنى قصد التتر قلتُ له: إنّ العدوّ قويّ، وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع معي[2] عشرة آلاف فارس استنقذتُ ما أخَذ[3] من البلاد؛ فأمرني بالمسير، ووعدني بوصول العسكر، فلمّا سرتُ لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثماني مائة طواشي، فأقمتُ، وما رأيتُ المخاطرة بنفسي وبالمسلمين.

ولمّا سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنّاً منهم أنّ العسكر

---

(١) من (أ).

(٢) في الأوربية: «مع».

(٣) في (أ): «أخذوه».

يتبعهم، فلمّا لم يروا أحداًيطلبهم أقاموا، وأقام العسكر الإسلاميّ عند دَقُوقَا، فلمّا لم يروا العدوّ يقصدهم، ولا المدد يأتيهم، تفرّقوا، وعادوا إلى بلادهم[(١)].

ذكر ملك التتر هَمَذان وقتل أهلها

لمّا تفرّق العسكر الإسلاميّ عاد التتر إلى هَمَذان، فنزلوا بالقرب منها، وكان لهم بها شِحنة يحكم فيها، فأرسلوا إليه ليطلب من أهلها مالاً وثياباً، وكانوا قد استنقذوا أموالهم في طول المدّة، وكان رئيس هَمَذان شريفاً علوياً، وهو من بيت رئاسة قديمة لهذه المدينة، هو الذي يسعى في أمور أهل البلد مع التتر، ويوصل إليهم ما يجمعه من الأموال؛ فلمّا طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل هَمَذان ما يحملونه إليهم، فحضروا عند الرئيس ومعه إنسان فقيهٌ قد قام في اجتماع الكلمة على الكفّار قياماً مَرْضيّاً، فقالوا لهما: هؤلاء الكفّار قد أفنوا أموالنا، ولم يبق لنا ما نعطيهم، وقد هلكنا من أخذهم أموالنا، وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان.

وكانوا قد جعلوا بهمذان شِحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره، فقال الشريف: إذا كنّا نعجز عنهم فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلاّ مصانعتهم بالأموال؛ فقالوا له: أنت أشدّ علينا من الكفّار! وأغلظوا له في القول، فقال: أنا واحد منكم، فاصنعوا ما شئتم. فأشار الفقيه بإخراج شِحنة التتر من البلد والامتناع فيه، ومقاتلة التتر؛ فوثب العامّة على الشِحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد؛ فتقدّم التتر إليهم وحصروهم، وكانت الأقوات متعذّرة في تلك البلاد جميعها، لخرابها، وقتل أهلها، وجلاء من سلم منهم، فلا يقدر أحدٌ على الطعام إلاّ قليلاً؛ وأمّا التتر فلا يُبالون بعدم الأقوات لأنّهم لا يأكلون إلاّ اللحم، ولا تأكل دوابّهم إلاّ نبات الأرض، حتّى إنّها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها.

فلمّا حصروا هَمَذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم، فقُتل من التتر خلق كثير، وجُرح الفقيه عدّة جراحات، وافترقوا، (ثمّ خرجوا)[(٢)] من الغد فاقتتلوا أشدّ من القتال الأوّل، وقُتل أيضاً من التتر أكثر من اليوم الأوّل، وجُرح الفقيه أيضاً عدّة جراحات وهو صابر؛ وأرادوا أيضاً الخروج، اليوم الثالث، فلم يُطِق الفقيه الركوب، وطلب الناس الرئيس العلويّ فلم يجدوه، كان قد هرب في سَرَب صنعه إلى

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/ ٣١٤ ـ ٣١٦.

(٢) من (أ).

ظاهر البلد هو وأهله إلى قلعة هناك على جبل عالٍ فامتنع فيها.

فلمّا فقده الناس بقوا حَيارى لا يدرون ما يصنعون، إلاّ أنّهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا، فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه.

وكان التتر قد عزموا على الرحيل عنهم لكثرة مَن قُتل منهم؛ فلمّا لم يروا أحداً خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلّوا على ضعف أهله، فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثماني عشرة وستّمائة، ودخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم الناس في الدّروب، فبطل السلاح للزحمة، واقتتلوا بالسكاكين، فقُتل من الفريقين ما لا يحصيه إلاّ الله تعالى، وقوي التتر على المسلمين فأفنوهم قتلاً، ولم يسلم إلاّ مَن كان عمل له نفقاً يختفي فيه، وبقي القتل في المسلمين عدّة أيّام، ثمّ ألقوا النار في البلد فأحرقوه ورحلوا عنه إلى مدينة أردويل[١].

وقيل كان السبب في مُلكها أنّ أهل البلد لمّا شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفّار، أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ إليهم عسكراً مع أمير يجمع كلمتهم، فاتّفقوا على ذلك، فكتب إلى الخليفة يُنهي إليه ما هم عليه من الخوف والذّلّ، وما يركبهم به العدوّ من الصَّغار والخزي، ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه؛ فلمّا سار القصّاد بالكتب أرسل بعض مَن علم بالحال إلى التتر يُعلمهم ذلك، فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم، وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال، فجحد، فأرسلوا إليه كتبه وكتب الجماعة، فسُقط في أيديهم، وتقدّم إليهم التتر حينئذٍ وقاتلوهم، وجرى في القتال كما ذكرنا[٢].

ذكر مسير التتر إلى أذربيجان ومُلكهم أردويل وغيرها

لمّا فرغ التتر من هَمَذان ساروا إلى أذْرَبِيجان، فوصلوا إلى أردَويل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا، وخربوا أكثرها، وساروا منها إلى تِبرِيز، وكان قد قام بأمرها شمس الدّين الطُّغْرائيّ[٣]، وجمع كلمة أهلها، وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان، وكان أميراً متخلّفاً، لا يزال منهمكاً في الخمر ليلاً ونهاراً، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر، وإذا سمع هَيعة طار مجفِلاً لها، وله جميع أذْرَبِيجان وأرّانَ، وهو

(١) في (أ): «أردبيل»، والإثنان واحد، وهي إحدى مدن أذربيجان.

(٢) نهاية الأرب ٢٧/٣١٦، ٣١٧.

(٣) في (أ): «عثمان الطغرائي».

أعجز خلق الله عن حفظ البلاد من عدوّ يريدها ويقصدها.

فلمّا سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تِبرِيز وقصد نَقْجُوان، وسيّر أهله ونساءه إلى خُوَيّ ليبعد عنهم، فقام هذا الطُّغرائيّ بأمر البلد، وجمع الكلمة وقوّى نفوس الناس على الامتناع، وحذرهم عاقبة التّخاذل والتّواني، وحصّن البلد بجهده وطاقته؛ فلمّا قاربه التتر، وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم، وأنّهم قد حصّنوا المدينة، وأصلحوا أسوارها وخندقها، أرسلوا يطلبون منهم مالاً وثياباً، فاستقرّ الأمر بينهم على قدْر معلوم من ذلك، فسيّروه إليهم، فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سَرَاوْ[1] فنهبوها، وقتلوا كلّ مَن فيها.

ورحلوا منها إلى بَيْلقان، من بلاد أرّان، فنهبوا كلّ ما مرّوا به من البلاد والقرى، وخرّبوا، وقتلوا مَن ظفروا به من أهلها، فلمّا وصلوا إلى بَيْلقان حصروها، فاستدعى أهلها منهم رسولاً يقرّون معه[2] الصلح، فأرسلوا إليهم رسولاً من أكابرهم ومقدّميهم، فقتله أهل البلد، فزحف التتر إليهم وقاتلوهم، ثمّ إنّهم ملكوا البلد عَنوةً في شهر رمضان سنة ثماني عشرة [وستمائة] ووضعوا فيهم السيف فلم يُبقوا على صغير ولا كبير، ولا امرأة، حتّى إنّهم كانوا يشقّون بطون الحبالى، ويقتلون الأجِنّة، وكانوا يَفْجُرون بالمرأة ثمّ يقتلونها، وكان الإنسان منهم يدخل الدّرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحداً بعد واحد حتّى يفرغ من الجميع لا يمدّ أحد منهم إليه يداً.

فلمّا فرغوا منها استقصوا ما حولها بالنهب والتخريب، وساروا إلى مدينة كَنْجَةَ، وهي أمّ بلاد أرّان، فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دَرّيتهم بقتال الكُرج، وحصانتَها، فلم يُقدموا عليها، فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب، فحملوا إليهم ما طلبوا، فساروا عنهم[3].

ذكر قصد التتر بلاد الكُرج

لمّا فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذْرَبِيجان وأرّان، بعضه بالملك، وبعضه بالصلح، ساروا إلى بلاد الكُرج من هذه الأعمال أيضاً، وكان الكُرج قد أعدّوا لهم، واستعدّوا، وسيّروا جيشاً كثيراً إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها، فوصل إليهم

---

(١) في (أ): «سراة». و «سراو» بفتح أوله وآخره، مدينة بأذربيجان بين أردبيل وتبريز.

(٢) في الأوربية: «يقررون معهم».

(٣) نهاية الأرب ٣١٨/٢٧، ٣١٩.

التتر، فالتقوا، فلم يثبت الكُرج بل ولّوا منهزمين، فأخذهم السيف، فلم يسلم منهم إلاّ الشريد.

ولقد بلغني أنّهم قُتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونهبوا ما وصلوا إليه من بلادهم، وخرّبوها، وفعلوا بها ما هو عادتهم، فلمّا وصل المنهزمون إلى تِفْلِيس وبها ملكهم[1] جمعوا جموعاً أخرى وسيّرهم إلى التتر أيضاً ليمنعوهم من توسّط بلادهم، فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك، فلمّا رأوا فعلهم عادوا إلى تِفْلِيس، فأخلوا البلاد، ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب، والقتل، والتخريب، ورأوا بلاداً كثيرة المضايق والدَّرْبَنْدات، فلم يتجاسروا على الوغول فيها، فعادوا عنها.

وداخل الكُرج منهم خوفٌ عظيم، حتى سمعتُ عن بعض أكابر الكُرج، قدم رسولاً، أنّه قال: من حدّثكم أنّ التتر انهزموا وأُسروا فلا تصدّقوه، وإذا حُدّثتم أنهم قتلوا فصدّقوا، فإنّ القوم لا يفرّون أبداً، ولقد أخذنا أسيراً منهم، فألقى نفسه من الدّابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات، ولم يسلّم نفسه للأسر[2].

ذكر وصولهم إلى دَرْبَنْد شِروان وما فعلوه فيه

لمّا عاد التتر من بلد الكُرج قصدوا دَرْبَنْد شِروان[3]، فحصروا مدينة شَماخي[4] وقاتلوا أهلها، فصبروا على الحصر، ثمّ إنّ التتر صعدوا سورها بالسلاليم، وقيل بل جمعوا كثيراً من الجِمال والبقر والغنم وغير ذلك، ومن قتلى الناس منهم ومن غيرهم، وألقوا بعضَه فوق بعض، فصار مثل التلّ، وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها، فصبروا، واشتدّ القتال ثلاثة أيّام، فأشرفوا على أن يؤخذوا، فقالوا: السيف لا بدّ منه، فالصبر أولى بنا نموت كراماً.

فصبروا تلك الليلة، فأنتنت تلك الجِيَف وانهضمت، فلم يبق للتتر على السور استعلاء، ولا تسلُّطٌ على الحرب، فعاودوا الزحف وملازمة القتال، فضجر أهلها، ومسّهم التعب والكلال والإعياء، فضعُفوا، فملك التتر البلد، وقتلوا فيه فأكثروا، ونهبوا الأموال فاحتازوها.

---

(١) في (ب): «ملكهم والقيم بدولتها ايواني فجمع جموعاً».
(٢) نهاية الأرب ٢٧/٣١٩، ٣٢٠.
(٣) دَرْبَنْد: بالفارسية: باب الأبواب. وشروان: مدينة من نواحي باب الأبواب.
(٤) شماخي: بفتح أوله. قصبة بلاد شروان في طرف أران.

فلمّا فرغوا منه أرادوا عبور الدَّرْبَند، فلم يقدروا على ذلك، فأرسلوا رسولاً إلى شِروان [شاه][1] ملك دَرْبَند شِروان يقولون له ليرسل إليهم رسولاً يسعى بينهم في الصلح، فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه، فأخذوا أحدهم فقتلوه، ثمّ قالوا للباقين: إن أنتم عرّفتمونا طريقاً نعبر فيه فلكم الأمان، وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا. فقالوا لهم: إنّ هذا الدَّرْبَند ليس فيه طريق البتّة، ولكنْ فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق؛ فساروا معهم إلى ذلك الطريق، فعبروا فيه، وخلّفوه وراء ظهورهم[2].

ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق

لمّا عبر التتر دَرْبَنْدَ شِروان ساروا في تلك الأعمال، وفيها أُممٌ كثيرة منهم: اللاّن واللّكز، وطوائف من الترك، فنهبوا، وقتلوا (من اللّكز كثيراً، وهم مسلمون وكفّار، وأوقعوا بمن عداهم)[3] من أهل تلك البلاد، ووصلوا إلى اللاّن، وهم أممٌ كثيرة، وقد بلغهم خبرهم، فحذروا، وجمعوا عندهم جمعاً من قفجاق، فقاتلوهم، فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون: نحن وأنتم جنس واحد، وهؤلاء اللاّن ليسوا منكم حتّى تنصروهم، ولا دينكم مثل دينهم، ونحن نعاهدكم أنّنا لا نتعرّض لكم، ونحمل إليكم من الأموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم.

فاستقرّ الأمرُ بينهم على مالٍ حملوه وثياب وغير ذلك، فحملوا إليهم ما استقرّ وفارقهم قفجاق فأوقع التتر باللاّن، فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا، وسبوا، وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرّقون لما استقرّ بينهم من الصلح، فلم يسمعوا بهم إلاّ وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأوّل فالأوّل، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم.

وسمع من كان بعيد الدّار من قفجاق الخبر، ففرّوا من غير قتال، وأبعدوا، فبعضهم اعتصم بالغياض، وبعضهم بالجبال، وبعضهم لحِق ببلاد الروس.

وأقام التتر في بلاد قفجاق، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى، وأماكن حارّة في الشتاء كثيرة المرعى،

---

(١) من الجريدة الآسيوية لسنة ١٨٤٩ ـ ج ٢/ ٤٥٤.
(٢) نهاية الأرب ٢٧/ ٣٢٠.
(٣) من (ب).

وهي غياض على ساحل البحر، ووصلوا إلى مدينة سوداق، وهي مدينة قفجاق التي منها مادّتهم، فإنّها على بحر الخَزَر، والمراكب تصل إليها وفيها الثياب، فيشتري قفجاق منهم ويبيعون عليهم الجواري، والمماليك، والبُرطاسيّ، والقُنْدُز[1]، والسنجاب، وغير ذلك ممّا هو في بلادهم، وبحر الخزَر هذا هو بحر متّصل بخليج القسطنطينيّة.

ولمّا وصل التتر إلى سوداق ملكوها، وتفرّق أهلها منها، فبعضهم صعِد الجبال بأهله وماله، وبعضهم ركب البحر وسار إلى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قَلْج أرسلان[2].

ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس

لمّا استولى التتر على أرض قفجاق، وتفرّق قفجاق، كما ذكرنا، سار طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس، وهي بلاد كثيرة، طويلة عريضة، تجاورهم، وأهلها يدينون بالنصرانيّة، فلمّا وصلوا إليهم اجتمعوا كلّهم، واتّفقت كلمتهم على قتال التتر إن قصدوهم، وأقام التتر بأرض قفجاق مدّة، ثمّ إنّهم ساروا سنة عشرين وستّمائة إلى بلاد الروس، فسمع الروس وقفجاق خبرهم، وكانوا مستعدّين لقتالهم، فساروا[3] إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم إلى التتر، فعادوا على أعقابهم راجعين، فطمع الروس وقفجاق فيهم، وظنّوا أنّهم عادوا خوفاً منهم وعجزاً عن قتالهم، فجدّوا في اتّباعهم، ولم يزل التتر راجعين، وأولئك يقفون أثرهم، اثني عشر يوماً.

ثمّ إنّ التتر عطفوا على الروس[4] وقفجاق، فلم يشعروا بهم إلاّ وقد لقوهم على غِرّة منهم، لأنّهم كانوا قد أمنوا التتر، واستشعروا القدرة عليهم، فلم تتكامل عدّتهم للقتال إلاّ وقد بلغ التتر منهم مبلغاً عظيماً، فصبر الطائفتان صبراً لم يُسمع بمثله.

ودام القتال بينهم عدّة أيّام، ثمّ إنّ التتر ظفروا واستظهروا، فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر، وكثُر القتل في المنهزمين فلم يسلم

---

(١) في طبعة صادر ٣٨٦/١٢ «قندر» بالراء المهملة.

(٢) نهاية الأرب ٣٢١/٢٧.

(٣) في (أ): «فساروا في خلق لا يحصى يطلبون التتر ليقاتلوهم ويمنعوهم عن بلادهم، فبلغ خبرهم إلى التتر».

(٤) في (أ): «إن التتر رجعوا نحو الروس».

منهم إلاّ القليل، ونُهب جميع ما معهم، ومَن سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبُعد الطريق والهزيمة، وتبِعهم التتر يقتلون وينهبون ويخربون البلاد، حتّى خلا أكثرها، فاجتمع كثير من أعيان تجّار الروس وأغنيائهم وحملوا ما يعزّ عليهم، وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام في عدّة مراكب.

فلمّا قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم، فغرق إلاّ أنّ الناس نجوا، وكانت العادة جارية أنّ السلطان له كلّ مركب ينكسر، فأخذ من ذلك شيئاً كثيراً، وسلم باقي المراكب، وأخبر مَن بها بهذه الحال[١].

ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق إلى ملكهم[٢]

لمّا فعل التتر بالروس ما ذكرناه، ونهبوا بلادهم، عادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستّمائة، فلمّا سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدّة مواضع، وخرجوا إليهم فلقوهم[٣]، واستجرّوهم إلى أن جاوزوا موضع الكُمناء، فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم، فبقوا في الوسط، وأخذهم السيف من كلّ ناحية، فقُتل أكثرهم، ولم ينج منهم إلاّ القليل.

قيل: كانوا نحو أربعة آلاف رجل، فساروا إلى سَقْسين عائدين إلى ملكهم جِنكِزْخان، وخلت أرض قفجاق منهم، فعاد من سلم منهم إلى بلادهم، وكان الطريق منقطعاً مذ دخلها التتر، فلم يصل منهم شيء من البُرْطاسيّ والسّنجاب والقُنْدُز[٤] وغيرها ممّا يُحمل من تلك البلاد، فلمّا فارقوها عادوا إلى بلادهم، واتّصلت الطريق، وحُملت الأمتعة كما كانت[٥].

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/ ٣٢٢.

وفي النسخة (أ) زيادة هي:

«نسأل الله أن يخلص الناس من شر هذه الطائفة التي عمّ ضررها واستطار شررها حتى ملأ الأرض، إنما أوردنا حوادث التتر المغربة متتابعة ولم نفصل بينها بما فعله ملكهم جنكزخان وباقي عسكره وإن كان أولى لئلا تنقطع أخبار هؤلاء فإن تتابعها يوضحها، ونذكر ما فعله جنكزخان ملكهم بخراسان متتابعاً أيضاً إن شاء الله تعالى».

(٢) العنوان من (أ).

(٣) في (ب) زيادة: «وقاتلوهم».

(٤) في طبعة صادر ١٢/ ٣٨٩ «القندر» بالراء المهملة.

(٥) نهاية الأرب ٢٧/ ٣٢٣، العسجد المسبوك ٢/ ٣٧٦.

هذه أخبار[1] التتر المغرّبة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلّا تنقطع.

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بُخارى وسَمَرْقند

قد ذكرنا ما فعله التتر المغرّبة التي سيّرها ملكهم جِنْكِزْخان، لعنه الله، إلى خُوارزم شاه؛ وأمّا جِنْكِزْخان فإنّه بعد أن سيّر هذه الطائفة إلى خُوارزم شاه وبلغه انهزام خُوارزم شاه من خُراسان، قسم أصحابه عدّة أقسام، فسيّر قسماً منها إلى بلاد فَرْغانة ليملكوها؛ وسيّر قسماً آخر منها إلى تِرْمِذ؛ وسيّر قسماً منها إلى كَلانة، وهي قلعة حصينة على جانب جَيْحون، من أحصن القلاع وأمنع الحصون، فسارت كلّ طائفة إلى الجهة التي أُمرت بقصدها، ونازلتها، واستولت عليها، وفعلت من القتل، والأسر، والسبي، والنهب، والتّخريب، (وأنواع الفساد)[2]، مثل ما فعل أصحابهم.

فلمّا فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جِنْكِزْخان وهو بسَمَرْقَنْد، فجهّز جيشاً عظيماً مع أحد أولاده وسيّرهم إلى خُوارزم، وسيّر جيشاً آخر فعَبروا جَيْحون إلى خُراسان[3].

ذكر مُلك التتر خراسان

لمّا سار الجيش المنفذ إلى خُراسان عبروا جَيْحون، وقصدوا مدينة بَلْخ، فطلب أهلها الأمان، فأمّنوهم، فسلّم[4] البلد سنة[5] سبع عشرة وستّمائة، ولم يتعرّضوا له بنهبٍ ولا قتل، بل جعلوا فيه شِحنة وساروا وقصدوا الزّوزان[6]، ومِيمَنْد، وأَنْدَخُوي، وقَاريات، فملكوا الجميع وجعلوا فيه وُلاةً، ولم يتعرّضوا لأهلها بسوء ولا أذًى[7]، سوى أنّهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم مَن يمتنع عليهم، حتّى وصلوا إلى الطالقان، وهي ولاية تشتمل على عدّة بلاد، وفيها قلعة حصينة يقال لها مَنصوركوه، لا تُرام عُلُوّاً وارتفاعاً، وبها رجال يقاتلون، شجعان، فحصروها[8] مدّة ستّة أشهر يقاتلون أهلها ليلاً ونهاراً ولا يظفرون منها بشيء.

---

(١) في (ب): «هذا جرى وهو آخر أخبار».

(٢) من (أ).

(٣) نهاية الأرب ٢٧/٣٢٣، ٣٢٤، البداية والنهاية ١٣/ ٩٠، العسجد المسبوك ٢/٣٧٦، ٣٧٧.

(٤) في (أ): «وتسلموا».

(٥) في (ب): «وتسلموها منهم سنة».

(٦) في (أ): «الرروان».

(٧) في (أ): «أهلها بشيء من الأذى».

(٨) في الأوربية: «فحصروه».

فأرسلوا إلى جِنْكِزْخان يعرّفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة، لكثرة مَن فيها من المقاتلة، (ولامتناعها بحصانتها)[1]، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم، وحصرها، ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى، (فأمرهم بمباشرة القتال وإلاّ قتلهم، فقاتلوا معه)[2]، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى فقُتل من التتر عليها خلق كثير، فلمّا رأى ملكهم ذلك (أمر أن يُجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه، ففعلوا ذلك)[3]، وصاروا يعملون صفّاً من خشب[4]، وفوقه صفّاً من تراب، فلم يزالوا كذلك حتّى صار تلاًّ عالياً يوازي القلعة، وصعِد الرّجّالة فوقه ونصبوا عليه منجنيقاً فصار يرمي إلى وسط القلعة وحملوا على التتر حملة واحدة فسلم الخيّالة منهم ونجوا، وسلكوا تلك الجبال والشعاب.

وأمّا الرّجّالة فقُتلوا، ودخل التتر القلعة، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال والأمتعة.

ثمّ إنّ جِنْكِزْخان جمع أهل البلاد الذين[5] أعطاهم الأمان (ببلْخ وغيرها)[6]، وسيّرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مَرْو، فوصلوا إليها وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممّن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتَيْ ألف رجل[7]، وهم معسكرون بظاهر مَرْو، وهم عازمون على لقاء التتر، ويحدّثون نفوسهم بالغلبة لهم، والاستيلاء عليهم؛ فلمّا وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا، فصبر المسلمون؛ وأمّا التتر فلا يعرفون الهزيمة، حتّى إنّ بعضهم أُسر، فقال (وهو عند المسلمين)[8]: إن قيل إنّ التتر يقتلون[9] فصدّقوا، وإن قيل إنّهم انهزموا فلا تصدّقوا.

فلمّا رأى المسلمون صبر التتر وإقدامهم، ولّوا منهزمين، فقتل التتر منهم وأسروا

---

(١) من (أ).
(٢) في (أ): «يعينونه على حصر القلعة».
(٣) من (ب).
(٤) في (أ): «الحطب».
(٥) في الأوربية: «التي».
(٦) من (أ).
(٧) في (أ): «رجل وقد عسكروا بظاهر مرو ويقولون إنهم يلقون التتر ويفنونهم قتلاً وأسراً، فلما وصل».
(٨) من (أ).
(٩) في (أ): «التتر قد قتلوا».

الكثير، ولم يسلم إلاّ القليل، ونُهبت أموالهم، وسلاحهم، ودوابّهم، وأرسل التتر إلى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مَرْو، فلمّا اجتمع لهم ما أرادوا تقدّموا إلى مَرْو وحصروها، وجدّوا في حصرها، ولازموا القتال.

وكان أهل البلد قد ضعُفوا بانهزام ذلك العسكر، وكثرة القتل والأسر فيهم، فلمّا كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذي (بها متقدّماً على مَن فيها)[1] يقولون له: لا تُهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك؛ فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد، فأمّنهم، فخرج إليهم، فخلع عليه ابن جِنْكِزْخان، واحترمه، وقال له: أريد أن تعرض عليّ أصحابك حتّى ننظر[2] من يصلح لخدمتنا استخدمناه، وأعطيناه إقطاعاً، ويكون معنا.

فلمّا حضروا عنده، وتمكّن منهم، قبض عليهم وعلى أميرهم، وكتّفوهم؛ فلمّا فرغ منهم قال لهم: اكتبوا إلى تجّار البلد ورؤسائه، وأرباب الأموال في جريدة، واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحِرَف في نسخة أخرى، واعرضوا ذلك علينا؛ ففعلوا ما أمرهم، (فلمّا وقف على النسخ)[3] أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم، فخرجوا كلّهم، ولم يبق فيه أحد، فجلس على كرسيٍّ من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قُبض عليهم، فأُحضروا، وضُربت رقابهم صبراً والناس ينظرون إليهم ويبكون.

وأمّا العامّة فإنّهم قسّموا الرجال والنساء والأطفال والأموال، فكان يوماً مشهوداً من كثرة الصراخ والبكاء والعويل، وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم، وعذّبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال، فربّما مات أحدهم من شدّة الضرب، ولم يكن بقي له [ما] يفتدي به نفسه، ثمّ إنّهم أحرقوا البلد، وأحرقوا تُربة السلطان سَنْجَر، ونبشوا القبر طلباً للمال، فبقوا كذلك ثلاثة أيّام، فلمّا كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافّة، وقال: هؤلاء عصوا علينا، فقتّلوهم أجمعين؛ وأمر[4] بإحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل[5]، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ممّا جرى على المسلمين ذلك اليوم.

---

(١) من (أ).

(٢) في الأوربية: «تنظر».

(٣) من (أ).

(٤) في (أ): «فقتلوا عامة ذلك اليوم وأمر».

(٥) نهاية الأرب ٢٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦، العسجد المسبوك ٢/ ٣٧٧، ٣٧٨.

ثمّ ساروا إلى نَيسابور فحصروها خمسة أيّام، وبها جمعٌ صالح من العسكر الإسلاميّ، فلم يكن لهم بالتتر قوّة، فملكوا المدينة، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء[١] فقتلوهم، وسبوا حريمهم، وعاقبوا من اتّهموه بالمال، كما فعلوا بمَرْو، وأقاموا خمسة عشر يوماً يخرّبون، ويفتّشون[٢] المنازل عن الأموال.

وكانوا لمّا قتلوا أهل مَرْو قيل لهم[٣] إنّ قتلاهم سلم منهم كثير، ونجوا إلى بلاد الإسلام، فأمروا بأهل نَيسابور أن تُقطع رؤوسهم[٤] لئلاّ يسلم من القتل أحد، فلمّا فرغوا من ذلك سيّروا[٥] طائفة منهم إلى طوس، ففعلوا بها كذلك أيضاً، وخرّبوها[٦] وخرّبوا المشهد الذي فيه عليّ بن موسى الرضى، والرشيد، حتّى جعلوا الجميع خراباً.

ثمّ ساروا إلى هَراة، وهي من أحصن البلاد، فحصروها عشرة أيّام فملكوها وأمّنوا أهلها، وقتلوا منهم البعض، وجعلوا عند من سلم منهم شِحنة، وساروا إلى غَزنة، فلقِيَهم جلال الدّين بن خُوارزم شاه فقاتلهم وهزمهم على ما نذكره إن شاء الله، فوثب أهل هَراة على الشِحنة فقتلوه، فلمّا عاد المنهزمون إليهم دخلوا البلد قهراً وعَنوةً، وقتلوا كلّ مَن فيه، ونهبوا الأموال وسبوا الحريم، ونهبوا السواد[٧] وخرّبوا المدينة جميعها وأحرقوها، وعادوا إلى ملكهم جِنْكِزْخان وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى جميع بلاد خُراسان، ففعلوا بها كذلك، ولم يَسلم من شرّهم وفسادهم شيء من البلاد، وكان جميع ما فعلوه بخُراسان سنة سبع عشرة [وستّمائة][٨].

ذكر مُلكهم خُوارزم وتخريبها

وأمّا الطائفة من الجيش التي سيّرها جِنكِزْخان إلى خُوارزم[٩]، فإنّها كانت أكثر

---

(١) في (أ): «إلى ظاهر البلد».
(٢) في (ب): «وينبشون».
(٣) في (أ): «قيل لهم إنه قد سلم من أولئك القتلى جمع ولجوا».
(٤) في (أ) زيادة: «ووكّلوا أسارى المسلمين بقطع الرؤوس».
(٥) في الأوربية: «وسيروا».
(٦) في (أ) زيادة: وفي جملة ما خربوا».
(٧) في (أ) زيادة: «وجميع القرى» وفي (ب): «أجمع».
(٨) نهاية الأرب ٢٧/٣٢٦، ٣٢٧، العسجد المسبوك ٢/٣٧٨، ٣٧٩.
(٩) في (أ) زيادة: «إلى خوارزم وكان فيهم كثرة فوصلوا إليها وفيها عسكر».

السرايا جميعها لِعِظَم البلد، فساروا حتّى وصلوا إلى خُوارزم وفيها عسكر كبير، وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة، فقاتلوهم أشدّ قتال سمع به الناس، ودام الحصر لهم خمسة أشهر، فقُتل من الفريقين خلق كثير، إلاّ أنّ القتلى من التتر كانوا أكثر لأنّ المسلمين كان يحميهم السور.

فأرسل التتر إلى ملكهم جِنكِزْخان يطلبون المدد، فأمدّهم بخلق كثير[1]، فلمّا وصلوا إلى البلد زحفوا (زحفاً متتابعاً، فملكوا طرفاً منه، فاجتمع أهل البلد)[2] وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا، فلم يقدروا على إخراجهم، ولم يزالوا يقاتلونهم، والتتر يملكون منهم محلّةً بعد محلّة، وكلّما ملكوا محلّة قاتلهم المسلمون في المحلّة التي تليهم، فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون، فلم يزالوا كذلك حتّى ملكوا البلد جميعه، وقتلوا كلّ من فيه، ونهبوا كلّ ما فيه؛ ثمّ إنّهم فتحوا السّكْر الذي يمنع ماء جَيْحون عن البلد فدخله الماء، فغرق البلد جميعه، وتهدّمت الأبنية، وبقي موضعه ماء، ولم يسلم من أهله أحدٌ البتّة، فإنّ غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله، منهم مَن يختفي، ومنهم مَن يهرب، ومنهم مَن يخرج ثمّ يسلَم، ومنهم مَن يُلقي نفسه بين القتلى فينجو.

وأمّا [أهل] خُوارِزم فمن اختفى من التتر غرّقه الماء، أو قتله الهدم، فأصبحت خَراباً يباباً[3]:

كأنْ لم يكنْ بينَ الحَجُون إلى الصّفا أنيسٌ، ولم يَسمُر بمكّةَ سامرُ[4]

وهذا لم يُسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه، نعوذ بالله من الحَور بعد الكَور، ومن الخِذلان بعد النصر، فلقد عمّت هذه المصيبة الإسلام وأهله، فكم من قتيلٍ من أهل خُراسان وغيرها، لأنّ القاصدين من التجّار وغيرهم كانوا كثيراً، مضى الجميع تحت السيف.

---

(١) في (أ): «فأمدّهم بطائفة كثيرة من الجند».

(٢) من (ب).

(٣) في الأوربية: «أباباً».

(٤) البيت لمضّامض بن عمرو الجرهمي يتشوّق لمكة لما أجلتهم عنها خزاعة. (معجم البلدان ٢/٢٢٥، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ـ بتحقيقنا ـ ١/٤٧٢ و٥٩١ و٥٩٥ و٥٩٧ و٦٠٠ و٦٠٢ و٦٠٦، أخبار مكة للأزرقي ١/٩٧، الأغاني ١٥/١٨، تاريخ الطبري ٢/٢٨٥، الروض الأنف ١/١٣٨، مروج الذهب ٢/٥٠، عيون التواريخ ١/٤٠، البداية والنهاية ٢/١٨٥).

ولمّا فرغوا من خُراسان إلى خُوارِزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان.

ذكر مُلك التتر غزنة وبلاد الغور

لمّا فرغ التتر من خُراسان وعادوا إلى ملكهم جهّز جيشاً كثيفاً وسيّره [إلى] غَزْنة وبها جلال الدّين بن خُوارزم شاه مالكاً لها، وقد اجتمع إليه مَن سلِم من عسكر أبيه، قيل: كانوا ستّين ألفاً، فلمّا وصلوا إلى أعمال غَزنة خرج إليهم المسلمون مع ابن خُوارزم شاه إلى موضع يقال له بَلْق[1]، فالتقوا هناك واقتتلوا قتالاً شديداً، وبقوا كذلك ثلاثة أيّام، ثمّ أنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، ومن سلِم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان، فلمّا سمع أهل هَرَاة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه، فسيّر إليهم جِنكِزْخان عسكراً فملكوا البلد وخرّبوه كما ذكرناه.

فلمّا انهزم التتر أرسل جلال الدّين رسولاً إلى جِنكِزْخان يقول له: في أيّ موضع تريد [أن] يكون الحرب حتّى نأتي إليه؟ فجهّز جِنكِزْخان عسكراً كثيراً، أكثر من الأوّل مع بعض أولاده، وسيّره إليه، فوصل إلى كَابُل، فتوجّه العسكر الإسلاميّ إليهم، وتصافّوا هناك، وجرى بينهم قتال عظيم، فانهزم الكفّار ثانياً، فقُتل[2] كثير منهم، وغنم المسلمون ما معهم، وكان عظيماً؛ وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير، فاستنقذوهم وخلّصوهم.

ثمّ إنّ المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة؛ وسبب ذلك أنّ أميراً منهم يقال له سيف الدّين بُغراق، أصله من الأتراك الخُلج، كان شجاعاً مقداماً، ذا رأيٍ في الحرب ومكيدة، واصطلى الحرب مع التتر بنفسه، وقال لعسكر جلال الدّين: تأخّروا أنتم فقد مُلئتم منهم رعباً؛ وهو الذي كسر التتر على الحقيقة.

وكان من المسلمين أيضاً أمير كبير يقال له ملك خان، بينه وبين خُوارزم شاه نسب، وهو صاحب هَراة، فاختلف هذان الأميران في الغنيمة، فاقتتلوا، فقُتل بينهم أخ لبُغراق. فقال بُغراق: أنا أهزم الكفّار ويُقتل أخي لأجل هذا السُّحت! فغضب وفارق العسكر وسار إلى الهند، فتبِعه من العسكر ثلاثون ألفاً كلّهم يريدونه، فاستعطفه جلال الدّين بكلّ طريق، وسار بنفسه إليه، وذكّره الجهاد، وخوّفه من الله تعالى[3]، وبكى

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «بلف»، وفي الباريسية، ونسخة أخرى «بلف».

(٢) في الأوربية: «فقيل».

(٣) في (أ) زيادة: «بتركه».

بين يديه، فلم يرجع، وسار مفارقاً، فانكسر لذلك المسلمون وضعُفوا.

فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر أنّ جِنْكِزْخان قد وصل في جموعه وجيوشه، فلمّا رأى جلال الدّين ضعف المسلمين لأجل مَن فارقهم من العسكر، ولم يقدر على المقام، سار[1] نحو بلاد الهند، فوصل إلى ماء السّند، وهو نهر كبير، فلم يجد من السفن ما يعبر فيه.

وكان جِنْكِزْخان يقصّ أثره مسرعاً، فلم يتمكّن جلال الدّين من العبور، حتّى أدركه جِنْكِزْخان في التتر، فاضطرّ المسلمون حينئذٍ إلى القتال والصبر لتعذّر العبور عليهم، وكانوا في ذلك كالأشقر إن تأخّر يُقتل وإن تقدّم يُعقر، فتصافّوا واقتتلوا أشدّ قتال، اعترفوا كلّهم أنّ كلّ ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال، فبقوا[2] كذلك ثلاثة أيّام، فقُتل الأمير مَلِك خان المقدّم ذكره وخلق كثير، وكان القتل في الكفّار أكثر[3]، والجراح أعظم، فرجع الكفّار عنهم، فأبعدوا، ونزلوا على بُعد، فلمّا رأى المسلمون أنّهم لا مدد لهم، وقد ازدادوا ضعفاً بمن قُتل منهم وجُرح، ولم يعلموا بما أصاب الكفّار من ذلك، أرسلوا يطلبون السفن، فوصلت، وعبر المسلمون ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فلمّا كان الغد عاد الكفّار إلى غَزْنة، وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين (الماء إلى جهة الهند وبُعدهم، فلمّا وصلوا إليها)[4] ملكوها لوقتها لخلُوّها من العساكر والمحامي، فقتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم، ولم يبق أحد، وخرّبوها وأحرقوها، وفعلوا بسوادها كذلك، ونهبوا وقتلوا وأحرقوا، فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس، (خاوية على عروشها كأن لم تَغْنَ بالأمس[5])[6].

---

(١) في الأوربية: «فسار».

(٢) في (أ): «قتال مضى لهم فبقوا».

(٣) في (أ): «وخلق كثير وكذلك من الكفار بل كان القتل فيهم أكثر».

(٤) من (أ).

(٥) من (أ).

(٦) أنظر خبر التتر في: التاريخ المنصوري ٨٠ ـ ٩٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٣٣ ـ ٢٣٦، وتاريخ الزمان ج ٨، ق ٢/٢٥٨، ٢٥٩، ومفرّج الكروب ٤/ ٣٤ ـ ٦٤، وسيرة جلال الدين منكبرتي للنسوي ٨٧ وما بعدها، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢٧، ونهاية الأرب ٢٧/ ٣٠٠ ـ ٣٢٩، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٩١ ـ ١٠٥، والعبر ٥/ ٦٤ ـ ٦٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦١٧هـ.)، وتاريخ ابن=

ذكر تسليم الأشرف خلاط إلى أخيه شهاب الدّين غازي

أواخر هذه السنة أقطع[١] الملك الأشرف موسى بن العادل مدينة خِلاط (وجميع)[٢] الأعمال: أرمينية، ومدينة ميّافارقين من ديار بكر، (ومدينة حاني)[٣]، أخاه[٤] شهاب الدّين غازيٍ بن العادل[٥]، وأخذ منه[٦] مدينة الرُّها، ومدينة سَرُوج من بلاد الجزيرة، وسيّره إلى خِلاط أوّل سنة ثماني عشرة وستّمائة.

وسبب ذلك أنّ الكُرج لمّا قصد التتر بلادهم وهزموهم، ونهبوها، وقتلوا كثيراً من أهلها، أرسلوا إلى أوزبك، صاحب أذْرَبِيجان وأرّان، يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر، وأرسلوا إلى الملك الأشرف في هذا المعنى، وقالوا للجميع: إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا[٧] بنفوسكم وعساكركم لهذا المهمّ، وإلاّ صالحناهم عليكم.

فوصلت رسلهم إلى الأشرف وهو يتجهّز[٨] إلى الدّيار المصريّة لأجل الفرنج، وكانوا عنده أهمّ الوجوه[٩]، لأسبابٍ: أوّلها أنّ الفرنج كانوا قد ملكوا دِمياط، وقد أشرفت الدّيار المصريّة على أن تُملك، فلو[١٠] ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لأحد.

وثانيها أنّ الفرنج أشدّ شكيمة، وطالِبُو مُلكٍ، فإذا ملكوا قرية لا يفارقونها إلا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوماً واحداً.

= الوردي ٢/ ١٤٠ ـ ١٤٢، والبداية والنهاية ١٣/ ٨١ ـ ٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٤، ٥٣٥، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١١، والسلوك ج ١، ق ١/ ٢٠٤، ٢٠٥، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٨، وتاريخ الخلفاء ٤٦٧ ـ ٤٧٠، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٧، وشذرات الذهب ٥/ ٧٢، ٧٣.

(١) في (أ): «سلم».
(٢) من (أ).
(٣) من (أ).
(٤) في (أ): «إلى أخيه».
(٥) في (أ): «العادل وأضاف إليها ميافارقين».
(٦) في (أ): «وأخذ منه عوض ذلك مدينة الرها وأعمال الجزيرة».
(٧) في الأوربية: «وتحضرون».
(٨) زاد في (أ): «للمسير».
(٩) في (أ): «الوجوه منها أنهم قد».
(١٠) في (أ): «فلو أخذوا مصر لم».

وثالثها أنّ الفرنج (قد طمعوا)[1] في كرسي مملكة البَيت العادليّ، وهي مصر، والتتر لم يصلوا إليها، (ولم يجاوزوا شيئاً من بلادهم)[2]، وليسوا أيضاً ممّن يريد (المنازعة في)[3] الملك، وما غرضهم إلاّ النهب، والقتل، وتخريب البلاد، والانتقال من بلد إلى آخر.

فلمّا أتاه رسل الكُرج بما ذكرناه، أجابهم[4] يعتذر بالمسير إلى مصر لدفع الفرنج، ويقول لهم: إنّني قد أقطعتُ ولاية خِلاط[5] لأخي، (وسيّرتُه إليها ليكون بالقرب منكم)[6]، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجتم إلى نصرته حضر لدفع التتر؛ وسار هو إلى مصر كما ذكرناه[7].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، ملك بدر الدّين قلعة تلّ أعفَر.

وفيها، في جُمادى الأولى، ملك الأشرف مدينة سِنجار.

وفيها أيضاً وصل الموصل، وأقام بظاهرها، ثمّ سار يريد إربل لقصد صاحبها، فتردّدت الرسل بينهم في الصلح، فاصطلحوا في شعبان، وقد تقدّم هذا جميعه مفصّلاً سنة خمس عشرة وستّمائة[8].

وفيها وصل التتر الرَّيّ فملكوها وقتلوا كلّ مَن فيها، ونهبوها، وساروا عنها، فوصلوا إلى هَمَذان، فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل، فأبقوا على أهلها وساروا إلى أذْرَبِيجان، فخرّبوا، وحرقوا البلاد، وقتلوا، وسبوا، وعملوا ما لم يُسمع بمثله، وقد تقدّم أيضاً مفصّلاً.

[الوفيات]

وفيها تُوفّي نصير الدّين ناصر بن مهدي العلويّ الذي كان وزيرَ الخليفة، وصُلّي

---

(١) من (أ).

(٢) من (أ).

(٣) من (أ).

(٤) في (أ): «ذكرناه أرسل إليهم».

(٥) في (أ) زيادة: «جميعها».

(٦) من (أ).

(٧) البداية والنهاية ١٣/ ٩١، العسجد المسبوك ٢/ ٣٨٠.

(٨) العسجد المسبوك ٢/ ٣٨٠، ٣٨١، المختار من تاريخ ابن الجزري ٩١.

عليه بجامع القصر، وحضره أرباب الدّولة ودُفن بالمشهد.

وفيها تُوفّي صدر الدّين أبو الحسن محمّد بن حَمُّويْه الجُوَينيّ، شيخ الشيوخ بمصر والشام، وكان موته بالموصل وردها رسولاً، وكان فقيهاً فاضلاً، وصوفيّاً صالحاً، من بيتٍ كبير من خُراسان، رحمه الله، كان نعمَ الرجل.

وفيها عاد جمع بني معروف إلى مواضعهم من البطيحة، وكانوا قد ساروا إلى الأجنا والقَطِيف، فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم، فقصدوا شِحنة البصرة، وطلبوا منه أن يكاتب الدّيوان ببغداد بالرضى عنهم، فكتب معهم بذلك وسيّرهم مع أصحابه إلى بغداد، فلمّا قاربوا واسط لقيهم قاصد من الدّيوان بقتلهم، فقُتلوا.

٦١٨
ثم دخلت سنة ثماني عشرة وستمائة

ذكر وفاة قَتادة أمير مكّة ومُلك ابنه الحسن وقتل أمير الحاجّ

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، تُوفّي قَتادةُ بن إدْريس[١] العلويّ، ثمّ الحَسَنيّ، أمير مكّة، حرسها الله، بها، وكان عمره نحو تسعين سنة، وكانت ولايته قد اتّسعت من حدود اليمن إلى مدينة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وله[٢] قلعة يَنْبُع بنواحي المدينة، وكثُر عسكره، واستكثر من المماليك، وخافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً.

وكان، في أوّل مُلكه، لمّا ملك مكّة، حرسها الله، حسن السيرة[٣] أزال عنها العبيد المفسدين، وحمى البلاد، وأحسن إلى الحجّاج، وأكرمهم، وبقي كذلك مدّةً، ثمّ إنّه بعد ذلك أساء السيرة، وجدّد المكوس بمكّة، وفعل أفعالاً شنيعة، ونهب الحاجّ في بعض السنين كما ذكرناه.

ولمّا مات ملك بعده ابنه الحسن[٤]، وكان له ابن آخر اسمه راجح، (مقيم)[٥] في العرب بظاهر مكّة، يفسد، وينازع أخاه في مُلك مكّة، فلمّا سار حاجّ العراق كان الأمير عليهم مملوكاً من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه أقباش، وكان حسن السيرة مع الحاجّ في الطريق، كثير الحماية، فقصده راجح بن قَتادة، وبذل له وللخليفة مالاً ليساعده على مُلك مكّة[٦]، فأجابه إلى ذلك، ووصلوا إلى مكّة، ونزلوا

---

(١) أنظر عن (قتادة بن إدريس) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٧هـ.) ص ٣٥٩.

(٢) في (أ): «إلى مكة وله».

(٣) في (أ): «أحسن السيرة و».

(٤) في (أ): «الحسن مكة وبقي ابن آخر».

(٥) من (أ).

(٦) في (أ): «مالاً ليوليه مكة».

بالزّاهر[١]، وتقدّم إلى مكّة مقاتلاً لصاحبها حسن.

وكان حسن قد جمع جموعاً كثيرة من العرب وغيرها، فخرج إليه من مكّة وقاتله، وتقدّم أمير الحاجّ من بين يدي عسكره منفرداً، وصعِد الجبل إدلالاً بنفسه، وأنّه لا يقدم أحد عليه، فأحاط به أصحاب حسن، وقتلوه، وعلّقوا رأسه، فانهزم[٢] عسكر أمير المؤمنين، وأحاط أصحاب حسن بالحاجّ لينهبوهم، فأرسل إليهم حسن عِمامته أماناً للحجّاج، فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيئاً وسكن الناس، وأذِن لهم حسن في دخول مكّة وفعْل ما يريدونه من الحجّ والبيع وغير ذلك، وأقاموا بمكّة عشرة أيّام، وعادوا، فوصلوا إلى العراق سالمين، وعظُم الأمر على الخليفة، فوصلت رُسُل حسن يعتذرون، ويطلبون[٣] العفو عنه، فأجيب إلى ذلك.

وقيل في موت قَتادة: إنّ ابنه حسناً خنقه فمات؛ وسبب ذلك أنّ قَتادة جمع جموعاً كثيرة وسار عن مكّة يريد المدينة، فنزل بوادي الفُرْع وهو مريض، وسيّر أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قَتادة، فلمّا أبعدوا بلغ الحسن أنّ عمّه قال لبعض الجند: إنّ أخي مريض، وهو ميّت لا محالة؛ وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قَتادة، فحضر الحسن عند عمّه، واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه، فقال الحسن لعمّه: قد فعلتَ كذا وكذا؛ فقال: لم[٤] أفعل؛ فأمر حسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا، وقالوا: أنت أمير وهذا أمير، ولا نمُدّ أيدينا إلى أحدكما. فقال له غلامان لقَتادة: نحن عبيدك، فمُرنا بما شئتَ؛ فأمرهما أن يجعلا عمامة عمّه في عنقه، ففعلا، ثمّ قتله.

فسمع قَتادة الخبر، فبلغ منه الغيظ كلّ مبلغ، وحلف ليقتلنّ ابنه، وكان على ما ذكرناه من المرض، فكتب بعض أصحابه إلى الحسن يُعرّفه الحال، ويقول له: ابدأ به قبل أن يقتلك؛ فعاد الحسن إلى مكّة، فلمّا وصلها قصد دار أبيه في نفرٍ يسير، فوجد[٥] على باب الدّار جَمْعاً كثيراً، فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، ففارقوا الدّار،

---

(١) في (أ) زيادة: «وقصد أمير الحاج مكة».
(٢) في (أ): «فانهزم أصحاب أمير الحاج».
(٣) في الأوربية: «ويطلب».
(٤) في النسخة رقم ٧٤٠ «له».
(٥) في (ب): «فرأى».

وعادوا إلى مساكنهم، ودخل الحسن إلى أبيه، فلمّا رآه أبوه شتمه، وبالغ في ذمّه وتهديده، فوثب إليه الحسن فخنقه لوقته، وخرج إلى الحرم الشريف، وأحضر الأشراف، وقال: إنّ أبي قد اشتدّ مرضه، وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم؛ فحلفوا له، ثمّ إنّه أظهر تابوتاً ودفنه ليظنّ الناس أنّه مات، وكان قد دفنه سرّاً.

فلمّا استقرّت الإمارة بمكّة له أرسل إلى أخيه الذي بقلعة اليَنْبُع على لسان أبيه يستدعيه، وكتم موت أبيه عنه، فلمّا حضر أخوه قتله أيضاً، واستقرّ أمره، وثبت قدمه، وفعل بأمير الحاجّ ما تقدّم ذكره، فارتكب عظيماً: قتل أباه وعمّه وأخاه في أيّام يسيرة، لا جَرَم لم يمهله الله، سبحانه وتعالى، نزع ملكه، وجعله طريداً شريداً خائفاً يترقّب.

وقيل إنّ قتادة كان يقول شِعراً، فمن ذلك أنّه طُلب ليحضر عند أمير الحاجّ، كما جرت عادة أمراء مكّة، فامتنع، فعوقب من بغداد، فأجاب بأبيات شِعر منها:

ولـي كـفُّ ضِـرغـامٍ أدل[1] ببَطشِهـا ... وأشـري بهـا بيـنَ الـوَرَى وأبيـعُ

تَظـلُّ[2] ملـوكُ الأرضِ تَلثُـمُ ظَهـرَهـا ... وفـي وسْطِهـا[3] للمُجـدِبيـنَ ربيـعُ

أأجعلُهـا تحـتَ الـرّحـا ثـمّ أبتغـي ... خَـلاصـاً لهـا؟ إنـي إذاً لـرقيـعُ!

ومـا أنَـا إلاّ المِسـكُ فـي كـلّ بَلـدةٍ[4] ... يَضـوعُ، وأمّـا عنـدكـم فيضيـعُ[5]

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دِمياط بالدّيار المصريّة من الفرنج، وقد تقدّم ذكرها مشروحاً مفصّلاً.

---

(١) في ذيل الروضتين «أذل» بالمعجمة.

(٢) في الأوربية: «تظنّ»، وفي تاريخ الإسلام: «وكّل».

(٣) في تاريخ الإسلام: «بطنها».

(٤) في تاريخ الإسلام: «بقعة».

(٥) الأبيات في: ذيل الروضتين ١٢٣، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦١٨هـ.)، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٩٠، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٦١٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٩/ ٩٢، وعمدة الطالب لابن عتبة، ١٤١، وانظر: الأذكياء لابن الجوزي، طبعة الميمنية بالقاهرة ١٣٠٦هـ. ـ ص ٤، ٥ و٤٦.

وفيها، في صفر، ملك التتر مَراغة وخرّبوها وأحرقوها وقتلوا أكثر أهلها، ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم.

وسار التتر منها إلى هَمَذان وحصروها، فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر وقتلوا منهم ما لا يُحصى، ونهبوا البلد.

وساروا إلى أذْرَبِيجان فأعادوا النهب، ونهبوا ما بقي من البلاد، ولم ينهبوه أوّلاً.

ووصلوا إلى بَيْلقان من بلاد أرّان، فحصروها وملكوها[١] وقتلوا أهلها حتّى كادوا يفنونهم ونهبوا أموالهم، وساروا إلى بلاد الكُرج من أذربيجان وأرّان، فلقِيهم خلق كثير من الكُرج فقاتلوهم وانهزم الكُرج وكثُر القتل فيهم ونُهب أكثر بلادهم وقُتل أهلها، وساروا من هناك إلى دَرْبَنْد شِروان، فحصروا مدينة شماخي وملكوها، وقتلوا كثيراً من أهلها.

وساروا إلى بلد اللاّن (واللّكْز ومَن عندهم من الأمم، فأوقعوا، ورحلوا)[٢] عن قفجاق، وأجلوهم عنها، واستولوا عليها، وساحوا في تلك الأرض حتّى وصلوا إلى بلاد الروس، وقد تقدّم ذِكر جميعه مُستقصًى، وإنّما أوردناه[٣] هاهنا جملة ليُعلم الذي كان في هذه السنة من حوادثهم.

[الوفيات][٤]

وفيها تُوفّي صديقنا أمين الدّين ياقوت الكاتب الموصليّ، ولم يكن في زمانه من يكتب ما يُقاربه، ولا من يؤدّي طريقةَ ابن البوّاب مثله؛ وكان ذا فضائل جمّة من عِلم الأدب وغيره، وكان كثير الخير، نِعم الرجل، مشهوراً في الدّنيا، والناس متّفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له، ولهم فيه أقوال كثيرة نظْماً ونثراً، فمن ذلك ما قاله نجيب الدّين الحسين بن عليّ الواسطيّ من قصيدةٍ يمدحه بها:

جَـامـعُ شـاردَ العلـومِ ولـولا ... هُ لكـانَـت أُمّ الفَضـائـلِ ثُكْلَـى

ذو يـراعٍ تَخـافُ سطـوتَـه[٥] الأُسـ ... ـدُ وتَعنُـو لـه الكتـائـبُ ذُلاّ

---

(١) في الأربية: «وملكوا».

(٢) من (أ).

(٣) في الأوربية: «أردناه».

(٤) أنظر عن (ياقوت الكاتب) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٨هـ.) ص ٤٣٤.

(٥) في وفيات الأعيان: «صَولته».

وإذا افتَـــرّ ثَغـــرُهُ عَـــن سَـــوادٍ   فـي بيـاضٍ فـالبِيـض والسُّمـر خَجلَـى
أنـــتَ بـــدرٌ والكَـــاتِـــبُ ابـــنُ هـــلالٍ   كـــأبيـــهِ لا فخـــرَ فيمَـــن تـــولّـــى

ومنها:

إنْ يَكـــنْ أوّلاً، فـــإنّـــك بـــالتّفـــضيـلِ أولَـى، لقـد سبقـتَ وصلّـى[1]

وهي طويلة، والكاتب ابن هلال هو ابن البّواب الذي هو أشهر من أن يُعرَّف.

وفيها تُوفّي جلال الدّين الحسن[2]، وهو من أولاد الحسن بن الصباح، الذي تقدّم ذِكره، صاحب ألُموتَ وكَرْدكُوه، وهو مقدّم الإسماعيليّة؛ وقد ذكرنا أنّه كان قد أظهر شريعة الإسلام من الأذان والصلاة، ووليَ بعد ابنه علاء الدّين محمّد.

---

(١) الأبيات من قصيدة طويلة في: وفيات الأعيان ٦/ ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٢) أنظر عن (جلال الدين الحسن) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٨هـ.) ص ٣٩٨.

٦١٩

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكُرج وما كان منهم

في هذه السنة اجتمع طائفة كثيرة من القفجاق وفارقوا بلادهم لمّا استولى عليهم التتر، وساروا إلى دَرْبَنْد شِرْوان، وأرسلوا إلى صاحبه، واسمه رشيد، وقالوا له: (إنّ التتر قد ملكوا بلادنا، ونهبوا أموالنا)[١]، وقد قصدناك لنقيم في بلادك، ونحن مماليك لك، ونفتح البلاد لك و[تكون] أنتَ سلطاننا؛ فمنعهم من ذلك وخافهم، فأعادوا الرسالة إليه: إنّنا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك، والانقياد لحكمك؛ فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فسألوه أن يمكّنهم[٢] ليتزوّدوا من بلده، تدخل عشرة عشرة، فإذا اشتروا ما يحتاجون[٣] إليه فارقوا بلاده، فأجابهم إلى ذلك، فصاروا يدخلون متفرّقين، ويشترون ما يريدون، ويخرجون.

ثمّ إنّ بعض كُبَرائهم والمقدّمين منهم جاء إلى رشيد وقال: إنّني كنتُ في خدمة السلطان خُوارزم شاه، وأنا مسلم، والدين يحملني على نصحك؛ اعلم أنّ قفجاق أعداؤك، ويريدون الغدر بك، فلا تمكّنهم من المقام ببلادك، فأعطني عسكراً حتّى أُقاتلهم وأُخرجهم من البلاد. ففعل ذلك، وسلّم إليه طائفة من عسكره، وأعطاهم ما يحتاجون إليه من سلاح وغيره، فساروا معه، فأوقعوا بطائفة من قفجاق، فقُتل منهم جماعة ونُهب منهم، فلم يتحرّك قفجاق لقتال بل قالوا: نحن مماليك الملك شِرْوان

---

(١) من (أ).

(٢) في (أ) زيادة: «من دخول المدينة».

(٣) في الأوربية: «يحتاجوا».

شاه رشيد، ولولا ذلك لقاتلنا عسكره؛ فلمّا عاد ذلك المقدّم القفجاقيّ ومعه عسكر رشيد سالمين، فرح بهم.

ثمّ إنّ قفجاق فارقوا موضعهم، فساروا ثلاثة أيّام، فقال ذلك القفجاقيّ لرشيد: أريد عسكراً أتبعهم [به وأغنم ما معهم]؛ فأمر له من العسكر بما أراد، فسار يقفو أثر القفجاق، فأوقع بأواخرهم، وغنم منهم.

وقصده جمعٌ كثير من قفجاق من الرجال والنساء يبكون، وقد جزّوا شعورهم، ومعهم تابوت، وهم محيطون به يبكون حوله، وقالوا له: إنّ صديقك فلاناً قد مات، وقد أوصى أن نحمله إليك فتدفنه [في] أيّ موضع شئتَ، ونكون نحن عندك؛ فحمله معه والذين يبكون عليه أيضاً، وعاد إلى شِروان شاه رشيد، وأعلمه أنّ الميّت صديق له، وقد حمله معه، وقد طلب أهله أن يكونوا عنده في خدمته، فأمَر أن يدخلوا البلد، وأنزلهم فيه.

فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدّم، ويركبون بركوبه، ويصعدون معه إلى القلعة التي لرشيد، ويقعدون عنده، ويشربون معه هم ونساؤهم، فأحبّ رشيد امرأة ذلك الرجل الذي قيل له: إنّه ميّت، ولم يكن مات، وإنّما فعلوا هكذا مكيدة حتّى دخلوا البلد والذي أظهروا موته معهم في المجلس، ولا يعرفه رشيد، وهو من أكبر مقدّمي قفجاق، فبقوا كذلك عدّة أيّام، فكلّ يوم يجيء جماعة من قفجاق متفرّقين، فاجتمع بالقلعة منهم جماعة، وأرادوا قبض رشيد (ومُلك بلاده)[1]، ففطن لذلك، فخرج عن القلعة من باب السرّ، وهرب ومضى إلى شِرْوان. وملك قفجاق القلعة، وقالوا لأهل البلد: نحن خير لكم من رشيد؛ وأعادوا باقي أصحابهم إليهم، وأخذوا السلاح الذي في البلد جميعه، واستولوا على الأموال التي كانت لرشيد في القلعة، ورحلوا عن القلعة، وقصدوا قِبلة، وهي للكُرج، فنزلوا عليها وحصروها.

فلمّا سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع إليها وملكها[2]، وقتل مَن بها من قفجاق، ولم يشعر القفجاق الذين عند قِبلة بذلك، فأرسلوا طائفة منهم إلى القلعة، فقتلهم رشيد أيضاً، فبلغ الخبر إلى القفجاق، فعادوا إلى دَرْبَنْدَ، فلم يكن لهم[3] في القلعة طمع.

---

(١) من (أ).

(٢) في (أ): «رجع إلى قلعة دربند وملكها».

(٣) في (أ): «لهم فيها مطمع وأرسل إليهم صاحب قبلة يستميلهم ويقول لهم أنا أرسل».

وكان صاحب قِبلة، لمّا كانوا يحصرونه، قد أرسل [إليهم، وقال لهم: أنا أُرسل][1] إلى ملك الكُرج حتّى يرسل إليكم الخلع والأموال، ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد؛ فكفّوا عن نهب ولايته أيّاماً، ثمّ إنّهم مدّوا أيديهم بالنهب والفساد، ونهبوا بلاد قِبلة جميعها، وساروا إلى قرب كَنْجَةَ من بلاد أرّان، وهي للمسلمين، فنزلوا هناك، فأرسل إليهم الأمير بكنجة، وهو مملوك لأوزبك صاحب أَذْرَبِيجان[2] اسمه كوشخرة، عسكراً فمنعهم من الوصول إلى بلاده[3]، وسيّر رسولاً إليهم يقول لهم: غدرتهم بصاحب شِرْوان، وأخذتم قلعته، وغدرتم بصاحب قِبلة، ونهبتم بلاده، فما يثق بكم أحد؛ فأجابوا: إنّنا ما جئنا إلاّ قصداً لخدمة سلطانكم، فمنعنا شِرْوان شاه عنكم، فلهذا قصدنا بلاده، وأخذنا قلعته، ثمّ تركناها من غير خوف؛ وأمّا صاحب قِبلة فهو عدوّكم وعدوّنا، ولو أردنا أن نكون عند الكُرج لما كنّا جعلنا طريقنا على دَرْبَنْد شِرْوان، فإنّه أصعب وأشقّ وأبعد، وكنّا جئنا إلى بلادهم[4] على عادتنا ونحن نوجّه الرهائن إليكم.

فلمّا سمع كوشخرة هذا سار إليهم، فسمع به قفجاق، فركب[5] أميران منهم، هما مقدّماهم، في نفر يسير، وجاءوا إليه ولقوه وخدموه، وقالوا له: قد أتيناك جريدة في قِلّة من العدد لتعلم أنّنا ما قصدنا إلاّ الوفاء والخدمة لسلطانكم؛ فأمرهم كوشخرة بالرحيل والنزول عند كَنْجَةَ، وتزوّج ابنة أحدهم[6]، وأرسل إلى صاحبه أوزبك يعرّفه حالهم، فأمر لهم بالخِلع والنزول بجبل كِيلَكون[7]، ففعلوا ذلك.

وخافهم الكُرج، فجمعوا لهم ليكبسوهم، فوصل الخبر بذلك إلى كوشخرة أمير كَنْجَةَ، فأخبر قفجاق، وأمرهم بالعود والنزول عند كَنْجَة، فعادوا ونزلوا عندها، وسار أمير من أمراء قفجاق في جمع منهم إلى الكُرج، فكبسهم، وقتل كثيراً منهم، وهزمهم، وغنم ما معهم، وأكثر القتل فيهم والأسر منهم، وتمّت الهزيمة عليهم،

---

(١) من النسخة رقم ٧٤٠.
(٢) زاد في (أ): «وأران».
(٣) في (أ): «يمنعهم من دخول بلاده».
(٤) في (أ): «بلادهم من طريق القريب على».
(٥) في الأوربية: «فركبا».
(٦) في (أ): «أحد من مقدّميهم وأرسل».
(٧) تصفّحت في الجريدة الآسيوية لسنة ١٨٤٩، ج ٢/٤٦٨ «كيكلون».

ورجع قفجاق إلى جبل كيِلَكون، فنزلوا فيه كما كانوا.

فلمّا نزلوا أراد الأمير الآخر من أمراء قفجاق أن يؤثر في الكُرج مثل ما فعل صاحبه، فسمع كوشخرة، فأرسل إليه ينهاه عن الحركة إلى أن يكشف له خبر الكُرج، فلم يقف، فسار إلى بلادهم في طائفته، ونهب وخرّب وأخذ الغنائم، فسار[١] الكُرج في طريق يعرفونها وسبقوه، فلمّا وصل إليهم قاتلوه، وحملوا عليه وعلى مَن معه على غِرّة وغفلة، فوضعوا السيف فيهم، وأكثروا القتل فيهم، واستنقذوا الغنائم منه، فعاد هو ومَن معه على أقبح حالة، وقصدوا بَرْذَعَة.

وأرسلوا إلى كوشخرة يطلبون أن يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكُرج فيأخذوا بثأرهم (منهم، فلم يفعل)[٢]، وأخافهم، وقال: أنتم خالفتموني، وعملتم برأيكم، فلا أُنجدكم بفارس واحد؛ فأرسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم، فلم يعطهم، (فاجتمعوا وأخذوا كثيراً من المسلمين عوضاً من الرهائن، فثار بهم المسلمون من أهل)[٣] البلاد، وقاتلوهم، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، فخافوا، وساروا نحن شِروان، وجازوا إلى بلد اللّكْز، فطمع الناس فيهم، المسلمون والكُرج واللّكْز وغيرهم، فأفنوهم قتلاً ونهباً وأسراً وسبياً بحيث إنّ المملوك منهم كان يباع في دَرْبَنْد شِرْوانَ بالثمن البَخس.

ذكر نهب الكُرج بَيْلقان

في هذه السنة، في شهر رمضان، سار الكُرج من بلادهم إلى بلاد أرّان وقصدوا مدينة بَيْلَقان، وكان التتر قد خرّبوها، ونهبوها، كما ذكرناه قبلُ، فلمّا سار التتر إلى بلاد قفجاق عاد من سلم من أهلها إليها، وعمروا ما أمكنهم عمارته من سورها[٤].

فبينما هم كذلك إذ أتاهم الكُرج [ودخلوا البلد وملكوه. وكان المسلمون في تلك البلاد أَلِفوا من الكُرج][٥] أنّهم إذا ظفروا ببلد صانعوه بشيء من المال فيعودون عنهم، فكانوا أحسن الأعداء مقدرة؛ فلمّا كانت هذه الدفعة ظنّ المسلمون أنّهم

---

(١) في (ب): «وعاد فسار».
(٢) من (أ).
(٣) من (أ).
(٤) في (أ): «عمارته من المساكن والسور».
(٥) ما بين الحاصرتين من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

يفعلون مثل ما تقدّم، فلم يبالغوا في الامتناع[1] منهم، ولا هربوا من بين أيديهم؛ فلمّا ملك الكُرج المدينة وضعوا السيف في أهلها، وفعلوا من القتل والنهب أكثر ممّا فعل بهم التتر.

هذا جميعه يجري، وصاحب بلاد أذْرَبِيجان أوزبك[2] بن البهلوان بمدينة تِبْرِيز، ولا يتحرّك في صلاح، ولا يتّجهُ[3] لخير بل قد قنع بالأكل وإدمان الشرب والفساد، فقبّحه الله، ويسّر للمسلمين مَن يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمّد وآله[4].

ذكر مُلك بدر الدّين قلعة شوش

في هذه السنة ملك بدر الدّين، صاحب الموصل، قلعة شُوشَ من أعمال الحميديّة، وبينها وبين الموصِل اثنا عشر فرسخاً.

وسبب ذلك أنّها كانت هي وقلعة العَقر متجاورتين لعماد الدّين زنكي بن أرسلان شاه[5]، (وكان بينهما من الخُلف[6] ما تقدّم ذكره.

فلمّا كان هذه السنة)[7] سار زنكي إلى أذْرَبِيجان ليخدم صاحبها أوزبك بن البهلوان، فاتّصل به، وصار معه، وأقطعه إقطاعات، وأقام عنده، فسار بدر الدّين إلى قلعة شُوشَ فحاصرها، وضيّق عليها[8]، وهي على رأس جبل عالٍ، فطال مقامه عليه لحصانتها، فعاد إلى الموصل، وترك عسكره محاصراً لها، فلمّا طال الأمر على مَن بها، ولم يروا مَن يرحّله عنهم، ولا مَن ينجدهم، سلّموها على قاعدة استقرّت بينهم، من أقطاع وخِلع وغير ذلك، فتسلّمها نوّابه في التاريخ، ورتّبوا أمورها وعادوا إلى الموصل[9].

---

(١) في (أ): «في الامتناع ولا فارقوا البلد مع معرفتهم بعجزهم، فلما».

(٢) في (أ): «وصاحب البلاد الإسلامية أوزبك».

(٣) في الجريدة الآسيوية ١٩٤٠، ج ٢/ ٤٧٢ «نتجة».

(٤) في الأوربية: «وآلهم». والخبر باختصار في: العسجد المسبوك ٢/ ٣٩٢.

(٥) في (أ): «أرسلان شاه وهما متجاورتان».

(٦) في الأوربية: «الخلق».

(٧) ما بين القوسين من (أ).

(٨) زاد في (أ): «ونصب عليها المجانيق وهي من أمنع الحصون على الرأس».

(٩) مفرّج الكروب ٤/ ١١٥، المختار من تاريخ ابن الجزري ١١٥، تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦١٩هـ.)، العسجد المسبوك ٢/ ٣٩٣ باختصار شديد.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في العشرين من شعبان، ظهر كوكب في السماء في الشرق، كبير له ذُؤابة طويلة غليظة، وكان طلوعه وقت السَّحَر، فبقي كذلك عشرة أيّام، ثمّ إنّه ظهر أوّل الليل في الغرب ممّا يلي الشمال، فكان كلّ ليلة يتقدّم إلى جهة الجنوب نحو عشرة أذرُع في رأي العين، فلم يزل يقرب من الجنوب حتّى صار غرباً محضاً، ثمّ صار غرباً مائلاً إلى الجنوب، بعد أن كان غرباً ممّا يلي الشمال، فبقي كذلك إلى آخر شهر رمضان من السنة ثمّ غاب[1].

[الوفيات]

وفيها تُوفّي ناصر الدّين محمود[2] بن محمّد قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا وآمِد، وكان ظالماً قبيح السيرة في رعيّته. قيل: إنّه كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة في أنّ الأجساد لا تُحشر؛ كذبوا لعنهم اله. ولمّا مات ملك ابنه الملك المسعود.

---

(١) العسجد المسبوك ٢/٣٩٣.

(٢) أنظر عن (ناصر الدين محمود) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦١٨هـ.) ص٤٣٠ رقم ٥٧٨.

٦٢٠
ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

ذكر مُلك صاحب اليمن مكّة، حرسها الله تعالى

في هذه السنة[١] سار الملك المسعود أتسز ابن الملك الكامل محمّد، صاحب مصر، إلى مكّة، وصاحبها حينئذٍ حسن بن قَتادة بن إدريس، العلويّ الحسنيّ، قد ملكها بعد أبيه، كما ذكرناه.

وكان حسنٌ قد أساء إلى الأشراف والمماليك الذين كانوا لأبيه، وقد تفرّقوا عنه، ولم يبق عنده غير أخواله من غيره، فوصل صاحب اليمن إلى مكّة[٢]، ونهبها عسكره إلى العصر.

فحدّثني بعض المجاورين المتأهّلين أنّهم نهبوها، حتّى أخذوا الثياب عن الناس، وأفقروهم، وأمر صاحب اليمن أن يُنبش قبر قَتادة ويُحرق، فنبشوه، فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون إليه، فلم يروا فيه شيئاً، فعلموا حينئذٍ أنّ الحسن دفن أباه سرّاً، وأنّه لم يجعل في التابوت شيئاً.

وذاق الحسن عاقبة قطيعة[٣] الرحِم، وعجل الله مقابلته، وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمّه لأجله؛ خسر الدّنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين[٤].

ذكر حرب بين المسلمين والكُرج بأرمينية

في هذه السنة، في شعبان، سار صاحب قلعة سُرماري[٥]، [وهي] من أعمال

---

(١) في (أ): «السنة في أولها ملك صاحب اليمن أتسز. . . بن العادل صاحب مصر مكة وكان صاحبها».

(٢) في (ب): «إلى مكة رابع ربيع الآخر فلقيه الحسن وقاتله بالمسعى ببطن مكة فلم يثبت وولى منهزماً ففارق مكة فيمن معه وملك أتسز صاحب اليمن مكة ونهبها».

(٣) في (ب): «عاقبة الظلم وقطيعة».

(٤) أنظر شفاء الغرام (بتحقيقنا) ٢/ ٣١٥.

(٥) في الباريسية: «سر من رأى» وهو وهم.

[أرمينية إلى] خِلاط، لأنّه كان في طاعة صاحب خِلاط، وهو حينئذ شهاب الدّين غازي بن العادل أبي بكر بن أيّوب، فحضر عنه، واستخلف ببلده أميراً من أمرائه، فجمع هذا الأمير جمعاً وسار إلى بلاد الكُرج، فنهب منها عدّة قُرى وعاد.

فسمعت الكُرج بذلك، فجمع صاحب دَوِينَ، واسمه شلوة[1]، وهو من أكابر أمراء الكُرج، عسكره [وسار] إلى سُرماري فحَصرها أيّاماً، ونهب بلدها وسوادها ورجع.

فسمع صاحب سُرماري الخبر، فعاد إلى سُرماري، فوصل إليها في اليوم الذي رحل الكُرج عنها، فأخذ عسكره وتبعهم، فأوقع بساقتهم، فقتل منهم وغنم، واستنقذ بعض ما أخذوا من غنائم بلاده.

ثمّ إنّ صاحب دَوِينَ (جمع عسكره)[2] وسار إلى سُرماري ليحصرها، فوصل الخبر إلى صاحبها بذلك، فحصّنها، وجمع الذّخائر وما يحتاج إليه، فأتاه مَن أخبره أن الكُرج نزلوا بوادٍ بين دَوِينَ وسُرماري، وهو وادٍ ضيّق، فسار بجميع عسكره جريدة، وجدّ السير ليكبس الكُرج، فوصل إلى الوادي الذي هم فيه وقت السَّحَر، ففرّق عسكره فرقتَيْن: فرقة من أعلى الوادي، وفرقة من أسفله، وحملوا عليهم وهم غافلون، ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا وأسروا، فكان في جملة الأسرى شلوة أمير دَوِينَ، في جماعة كثيرة من مقدّميهم[3]، ومن سلم من الكُرج عاد إلى بلدهم على حالٍ سيّئة.

ثمّ إنّ ملك الكُرج أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة، وهو[4] الذي أعطى خِلاط وأعمالها الأمير شهاب الدّين، يقول له[5]: كنّا نظنّ أنّا صلح، والآن فقد عمل صاحب سُرماري هذا العمل، فإن كنّا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر، وإن كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرّفنا حتّى ندبّر أمرنا.

فأرسل الأشرف إلى صاحب سُرماري يأمره بإطلاق الأسرى وتجديد

---

(١) في الباريسية: «شروة».

(٢) في (أ): «حشد الكرج».

(٣) في (أ): «من مقدمي الكرج وغنموا جميع ما معهم وعادوا سالمين وأما الكرج فمن سلم منهم عاد إلى بلده».

(٤) في (أ): «صاحب خلاط وغيرها وهو».

(٥) في (أ): «الذي استناب أخاه غازي بخلاط يقول له».

الصلح[1] مع الكُرج، ففعل ذلك واستقرّت قاعدة الصلح، وأطلق الأسرى.

ذكر الحرب بين غياث الدّين وبين خاله

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة[2]، انهزم إيغان طائيسي، وهو خال غياث الدّين بن خُوارزم شاه محمّد بن تكش، وغياث الدّين هذا هو صاحب بلاد الجبل والرَّيّ وأصبهان (وغير ذلك، وله أيضاً بلاد كَرمان)[3].

وكان سبب ذلك أنّ خاله إيغان طائيسي كان معه، وفي خدمته، وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدّين إلاّ عن رأيه، والحكم إليه في جميع المملكة، فلمّا عظُم شأنه حدّث نفسه بالاستيلاء على الملك، وحسّن له ذلك غيره، وأطمعه فيه، (قيل: إنّ الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سرّاً، وأمره بذلك)[4]، فقويت نفسه على الخلاف، فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم.

فلمّا تمّ له أمره أظهر الخلاف على غياث الدّين، وخرج عن طاعة[5] أوزبك، وصار في البلاد يفسد، ويقطع الطريق، وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها، وانضاف إليه جمع كثير من أهل العُنف والفساد، ومعه مملوك آخر اسمه أيبك الشاميّ[6]، وساروا جميعهم إلى غياث الدّين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها، فجمع غياث الدّين عسكره والتقوا (بنواحي..........)[7] واقتتلوا، فانهزم خال غياث الدّين ومن معه، وقُتل من عسكره وأُسر كثير، وعاد المنهزمون إلى أذربيجان على أقبح حال، وأقام غياث الدّين في بلاده وثبت قدمه[8].

---

(١) في (أ): «الصلح من الجانبين فأطلق الأسرى واصطلحوا واستقرت القواعد بينهم».

(٢) في (أ): «جمادى الأولى».

(٣) من (أ).

(٤) من (أ).

(٥) في (ب): «طاعته وقصد أذربيجان وكان بها مملوك (لصاحبها أوزبك .A) اسمه بغدي قد خرج عن طاعة صاحبه (وخالف عليه ونهب البلاد وأفسد فيها .A) (أوزبك وانضاف إليه جمع كثير من أهل العيث والفساد وصار في البلاد)».

(٦) في (أ): «الشامي فكثر جمعهما واتفقا مع خال غياث الدين ولحق بهم كل من يريد الفساد والنهب فقوي خال غياث الدين بهما وكثر حشدهم وساروا إلى».

(٧) من النسخة الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ وفيهما بياض مقدار كلمتين.

(٨) العسجد المسبوك ٢/ ٣٩٥.

حادثة غريبة لم يوجد مثلها

كان أهل المملكة في الكُرج لم يبق منهم غير امرأة، وقد انتهى المُلك إليها فوليّته، وقامت بالأمر فيهم، وحكمت[1]، فطلبوا لها رجلاً يتزوّجها ويقوم بالملك نيابة عنها، ويكون من أهل بيت مملكة، فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر.

وكان صاحب أرْزَن الروم، هذا الوقت، هو مغيث الدّين طُغرُل شاه بن قلج أرسلان بن مسعود قلج[2] أرسلان، وبيته مشهور من أكابر ملوك الإسلام، وهم من الملوك السلجوقيّة، وله ولد كبير، فأرسل إلى الكُرج يطلب الملكة لولده ليتزوّجها، فامتنعوا من إجابته، وقالوا: لا نفعل هذا، لأنّنا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم. فقال لهم: إنّ ابني يتنصّر ويتزوّجها؛ فأجابوه إلى ذلك،فأمر ابنه فتنصّر ودان بالنصرانيّة، وتزوّج الملكة، وانتقل إليها، وأقام عند الكُرج حاكماً في بلادهم، واستمرّ على النصرانيّة، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيّامنا يوم نلقاه.

ثمّ كانت هذه الملكة الكرجيّة تهوى مملوكاً لها، فكان زوجها يسمع عنها القبائح ولا يمكنه الكلام لعجزه، ثمّ إنّه يوماً دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها في فراش، فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه، فقالت: إن رضيتَ بهذا، وإلاّ أنت أخبرُ. فقال: إنّني لا أرضى بهذا؛ فنقلتْه إلى بلد آخر، ووكّلت به مَن يمنعه من الحركة، وحجرت عليه، وأرسلت إلى بلد اللاّن وأحضرت رجلَيْن كانا قد وُصفا بحسن الصورة، فتزوّجت أحدهما، فبقي معها يسيراً، ثمّ إنّها فارقته، وأحضرت إنساناً آخر من كَنْجَة، وهو مسلم، فطلبت منه أن يتنصّر ليتزوّجها، فلم يفعل، فأرادت أن تتزوّجه وهو مسلم، فقام عليها جماعة الأمراء، ومعهم إيواني[3]، وهو مقدّم العساكر الكُرجيّة، فقالوا لها: قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثمّ تريدين أن يتزوّجك مسلم، وهذا لا نمكّن منه أبداً؛ والأمر بينهم متردّد والرجل الكَنْجيّ عندهم لم يُجِبهم إلى الدّخول في النصرانيّة، وهي تهواه[4].

---

(١) في (ب): «وحكمت عليهم».

(٢) في (ب): «بن قلج».

(٣) في الجريدة الآسيوية ١٩٤٩، ج ٢/ ٤٧٦ «أبوابي».

(٤) العسجد المسبوك ٢/ ٣٩٤.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كان الجراد في أكثر البلاد، وأهلك كثيراً من الغلّات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها[1].

[الوفيات]

وفيها، في رمضان، تُوفّي عبد الرحمن بن هبة الله[2] بن عساكر، الفقيه الشافعيّ الدمشقيّ، بها، وكان غزير العلم، عالماً بالمذهب، كثير الصلاح والزهد والخير، رحمه الله.

وفيها خرج العرب في خلق كثير على حجّاج الشام، وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخْذهم، وكان الأمير على الحجّاج شرف الدّين يعقوب بن محمّد، وهو من أهل الموصل، أقام بالشام، وتقدّم فيه، فمنعهم بالرغبة والرهبة، ثمّ صانَعَهم بمالٍ وثياب وغير ذلك، فأعطى الجميع من ماله، ولم يأخذ من الحجّاج الدّرهم الفرد، وفعل فِعلاً جميلاً. وكان عنده كثير من العلوم، ويرجع إلى دين متين[3].

---

(١) العسجد المسبوك ٢/ ٣٩٥.

(٢) هو: عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن الحسين. أنظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٠هـ.) ص ٥٠٠.

(٣) العسجد المسبوك ٢/ ٣٩٥.